كتاب الهلال

سندباد في سيارة

دكتور حسين فوزي

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL
سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : يوسف السباعي
رئيس التحرير : صالح جودت
المشرف الفني : جمال قطب
سكرتير التحرير : عايد عمياد

العدد ٢٦٠ ـ جمادى الآخره ١٣٩٢ اغسطس ١٩٧٢
No. 260 — Août 1972

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب
تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية او ٢ جك ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية ـ والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشة
الفنان جمـــال قطب

دكتور حسين فوزى

سندباد فى سيارة

دار الهلال

تقديم

بلغنى أيها الملك السعيد ان كان فى زمن الخليفة هارون الرشيد بمدينة بغداد رجل يقال له : «السندباد الحمال » . تعب من مشاله ذات يوم شديد الحر ، فألقى به الى مصطبة عريضة بباب بيت عظيم « أمامه كنس ورش ، وهواء معتدل » حمل اليه عبيرا منعشا ، ونغم أوتار ، وتغريد أطيار ، يدعوه صاحب الدار : فاذا الحمال بحضرة رجل عظيم ، وكزه الشيب فى عارضيه ، مليح الصورة ، عليه هيبة ووقار ، وعز وافتخار » .

يكرم العظيم وفادة الحمال، فاذا عرف بانه السندباد قال له ان اسمك مثل اسمى ، فانا « السندباد البحرى » والتفت الى من فى المجلس من الضيوف قائلا : « وما دامت الفرصة التى أتاحها لى أخى السندباد البرى قد سنحت ، فانى محدثكم بحديثى ، وما قاسيت من أهوال فى حياة المخاطر التى عشتها » .

ولقد دعانى السندباد البحرى الى مجلسه ، عندما اتاحت لى صروف الزمان ان أركب البحار التى ركبها ، دون معاناة المخاطر التى عاشها .. واستأذنته فى ان تحمل كتبى اسمه الكريم

رحلة الربيع وبعض هذا الصيف سندبادية من نوع

عجيب وجديد على ، لم اركب فيها البحر الا ساعة زمانية ، عبرت فيها مضيق جبل طارق من مدينة الجزيرة (الخثيراس) فى معدية انتقلت اليها اسوق سيارة عند طرف الاندلس الجنوبى ، وغادرتها خلف عجلة القيادة الى طرف المغرب الشمالى عند سبتة .

رحلة بدات فى باريس يوم ١٧ مايو عام ١٩٧١ ، وانتهت فى القاهرة ، يوم أول يولية .. ستة اسابيع قطعت فيها السيارة الهمام عشرة آلاف كيلومتر وبضعة مئات ، نهبا فى الارض ، وقطعتها نهبا للقلق المستحوذ على خشية خطا فى التقدير ، وانكسار فى عصا التسيار ، والتيه ، وانقطاع أسباب العيش حيث لا مجيب ولا نصير . أقضى هزيعا من الليل أعد للمرحلة التالية تحديدا للمسافات واختيارا للمأوى ، واطلاعا مسبقا على ما يقدر لى مشاهدته فى الظعن والاقامة .

رحلة القلق ، لا أتراسل مع قريب أو صديق ، ولا أتوقع رسالة من احد ، بحكم الانتقال الدائم ، والتركيز على خط السير .

رحلة لا تسمح بالتامل الهادىء فى الطبيعة السخية باشكالها والوانها ، أرضها وتضاريسها ، وسمائها وانهارها ، وجبالها ووديانها .. وصحاريها .. حقت على فيها قولة « ينهب الارض نهبا » !

الا ان اهجع فى مكان ليلة أو اكثر ، فاعود الى المشى والتسكع ، والمشاهدة الهادئة .. وحدث هذا فى اتجوليم وبايون بفرنسا ، وسان سباستيان ومدريد وقرطبة واشبيليه وغرناطة بأسبانيا ، ومراكش والرباط وفاس ومكناس بالمغرب ووهران وتلمسان والجزائر وقسنطينة وعنابة بالجزائر ، وتونس والقيروان وسوسة وصفاقس وقابس بتونس ، وطرابلس وبنغازى وطبرق بليبيا .

تتدافع الرؤى وتختلط اسماء الفنـــادق مع اسماء مدنها ، الا اشكالها ، اذ يكفى أن اتذكر شكل الفنـدق والمنظر من نافذة حجرتى حتى ارد اسمه الى مكانه .

رحلة بلا مذكرات ؛ مثل الـكثير من رحـلاتى التى اشغل فيها بما لا يسمح بتدوين أشياء عنها تفقد قيمتها مع الزمن . أما ما تختزنه الذاكرة فهو الجدير بالكتابة عنه فيما بعد ، مستعينا بالـكتب والخرائط والصور.. واوراق حساب الفنادق !

فى رحلتى هذه نزل واحد لا يحمل اسما ولا رسما ، بدائى متواضع ، قيمته عندى أن وجدت فيه المـأوى والمـأكل ، وقد سـمح لى بقطع رحلة الالف كيلومتر وزيادة ما بين طرابلس وبنغازى . ولقـد صـورت لى هذه الآلاف (خطـأ) وكأنها غفل من كل شىء ، حتى المـاء والنفط ، مما اضطرنى قبـل مغادرة بلاد تونس الى اقتناء صفيحتين (جيرى كان) ، احتياطا لم يكن له داع ولا لزوم ، بفضل ذلك النزل البسيط .

صـعدت فى جبـال شـامخة ، ونزلت الى وديان سحيقة . ومسـالك الجبال واحدة فى تعاريجها صعدا وهبوطا . . تدور لها رأس السائق دوخا ، ويبلغ حرصه فيها الاحتفاظ بما لا يقل عن شبر بين السيارة الطالعة والنازلة ، وبخاصة فى المنحنيات ، التى لا ينتهى أمرها الا عندما تغادر السفح الى المنبسط . ولا يقف الامر عند جبل واحد ؛ فما تلبث حتى تصعد فى المرتفع التالى، وما يليه .

صاحبت بحرنا الابيض على مسـتواه ، ومن اعالى السـفوح . وسقت على أطراف الهوات السحيقـة فى طرق متآكلة تحذرك لافتاتها من الانهيـار اذا انحرفت الى الشفا ، ثم تسلمك لمسالك عجيبة ، أنفاق وممرات

ذات اسقف من صخور بارزة معلقة تنبهك اللافتات الى انك تمر تحت « مساقط احجار » (ما اصدق قول القصاص الشعبى « جبال تشيلك وجبال تحطك »)

وعندما اتخذت طريقى فى الجزائر من عنابة الى سوق الاحراز ، متجها الى حدود تونس وسط جبال وتلال جرداء ، حتى « غار الدماء » ، اندفعت كالسيل العرم ، لا ألوى على شىء ، وكأنى اتشفى من عذاب المسالك « الزجزاجية » ، ذات المنحنيات التى تشبه بدبوس الشعر ، حتى بلغت «مجاز الباب» ، فتونس الخضراء .

وسلمتنى طرق تونس المنبسطة الى طرق ليبيا الفسيحة ، الذاهبة على مدد الشوف دون انحراف ، لا تعطلك فيها حيوانات المراعى ، ولا صريخ ابن يومين .

فاذا بى أنطلق من خطر الاصطدام والهوى فوق المفاوز المتشابكة ، الى خطر السرعات التى لم أبلغها من قبل أبدا . والسرعة فوق الطرق الليبية توقظك من ملال الطريق السوى الممتد الى مئات ومئات من الفراسخ . سرعات لا تكاد تحس بها فى ذلك الفضاء الواسع . فاذا أدركت تعديك المائة واربعين كيلو مترا الى المائة والستين فالسبعين ، أخذت الرهبة بتلابيب نفسك ، اذ تشعر بأن احتكامك بالآلة المخيفة لم يعد كما كان حول المائة .. فتستفيد هدوءك اذ تستقر حوالى المائة والثلاثين ...

أما بعد اجتياز نقطة الحدود الليبية عند « مساعد » والاتجاه الى السلوم ، فأن الطريق غير السوية تفرض عليك السير بحذر بالغ ،وبطء قاس، لتواصل السير مداولة بين الطريق الاصلية ، وما يعتورها من تحويلات خارج الخط ، تهددك فيها الحجارة والحصى والرمال والاتربة

بالانفراس الا ان تتلمس طريقك فوق « مدق » سيارات سابقة .

يالله ! كيف يتأتى أن تحمينا شر الطرق من السرعة الخطيرة ؛ فوق المسالك المنبسطة ، المستوية التي عرفت في فرنسا واسبانيا والشمال الافريقي ـ الا فوق الجبال !

وما أعجب طرق الحضارة تلك ! .. تجتازها بخريطة وبغير خريطة ، بمعرفة مسبقة من كتب الادلاء ، وبدون معرفة ، وكانت خرائطي وأدلائي كافية طوال العشرة آلاف كيلومتر ، فيما عدا الجزائر ، التي بحثت عن خرائط لها خارج الجزائر وداخلها ، فلم أوفق الى شيء منها !

علامات الطرق واضحة ، واخطارها يشار اليها بالرمز والكتابة . فلا ظلام فيها ولا تغريب ، ولا تيه. انطلق على باب الله دون وجل ، فاللافتات كفيلة بحمايتك من الخطأ والخطر .. على الا تهمل قراءة أية واحدة منها .

لم يحدث لي أن تهت في العراء .. وأكثر ما ضايقني التيه في المدن ، أرسم طريقي على خرائطها ، واودعها ذاكرتي .. واذا بطرق « الاتجاه الواحد » تمحو معالم استعدادي ، فأدور في حلقة لا أخرج منها الا بسؤال أهل المروءة .

ولقد عرفت في هؤلاء من يتحاشون الاقرار بأنهم لا يعرفون ، فيداونك بطريقة « كل شمن كان » وحدث أن سألت شخصين متجاورين فقال الواحد يمنة ، وقال الآخر يسرة ، وغادرتهما يتجادلان : خلاصا بنفسي من الميمنة والميسرة !

هذا كل ما عرفت من حوادث . لم يصب السيارة

عطب ولا خدش ، لا بفضل قيادتى ، ولكن بفضل اتقان القيادة عند كافة السائقين بكل تلك البلاد ، كانوا هم الذين يتجنبون خطئى !

أهم حادث وقع لى كان فى حاضرة من الشمال الافريقى .. نزلت من فندق الضاحية الى جادة فسيحة هى أوسع واطول شارع فى عاصمة البلاد . وركنت السيارة وسط رتل طويل من سيارات تقف على صفى طوار يتوسط الشارع العريض . كان ذلك فى الصباح التالى لوصولى مساء الى العاصمة ، وضاحيتها الجميلة على شاطىء البحر .

دلفت أسعى الى مصرف لتحويل النقد ، فاذا مكاتب الكامبيو تقفل قبل الظهر بساعة . فاخذت اتجول مشيا فى أسواق المدينة الآسرة ، استعيد ذكريات شبابى فيها ، بين جاداتها وبطحاواتها ومساجدها الاثرية التى جمعت بين فن المشارقة والمغاربة .

وعندما عدت الى الجادة الفسيحة ، وجدت طوارها خاليا تماما من السيارات التى كانت تزحمه فى الصباح .. حتى السيارة التى تركتها هناك .. اختفت بقدرة قادر ! ..

لم افكر ابدا فى ان تكون قد سرقت .. وحسبت لاول وهلة اننى اخطأت تحديد موقعها ، فقطعت الشارع ربحة وجيئة حتى تأكدت من اختفاء السيارة فعلا ! ..

وتذكرت ان محافظا للقاهرة « تعازم » ذات مرة ، وأمر برفع كل سيارة تخالف المرابط المقررة ، ونقلها الى قلم المرور ، وتغريم سائقها خمسة جنيهات . فأسرعت الى واحد من الاهالى أساله : هل يحدث عندكم أن تحمل الشرطة سيارة مقفلة مفرملة باحكام ؟

وقال لى بالفرنسية : أمال ! .. اذهب وابحث عن سيارتك فى حوش قلم المرور . واستعمل كلمة أضحكتنى هى التى تطلق على معتقل الكلاب السائمة ! ..

مشيت فى حمارة القيظ طويلا ، فليس معى من نقد البلاد مليم واحد ، حتى بلغت شفخانة المرور ، فاذا السيارة هناك ، نقلت « شيلة بيلة » ، ووقفت كالعروس كسيفة البال وسط السيارات الشضلية التى تعاقب على مخالفتها الاوامر .

قادونى الى الموكل بأمر المحابيس.. فاعتذرت بطريقة لا تخلو من العتاب المستتر : وصلت ياسيدى مساء الامس من خارج بلادكم ، ونزلت الى عاصمتكم هذا الصباح ، واوقفت السيارة وسط صفين طويلين من أخدانها ، وواضح لكم من لوحتها الدولية ان صاحبها سائح ، عابر سبيل.. وفى بلدى يعامل مرور الاسكندرية سيارات القاهرة والاقاليم برفق .

كان الرجل لطيف المعشر ، فبرأ السيارة ، وشطب رقمها من جدول المخالفات . ولو لم يفعل لدخلنا فى اشكال خلو الجيب من نقد البلد المضياف الكريم .. فى ساعة نحس البنوك ! ..

ودرس كبير وعيته من المرور باثنى عشر جمرك وشرطة حدود ، لا علاقة له بتفتيش الامتعة ، أو عدم تفتيشها . ولا اذكر أن فتشت امتعتى الا فى الجمرك الاسبانى عند الحدود الفرنسية .. امرت بفتح حقيبة كبيرة .. قلب الرجل محتوياتها ، فاكتشف مجلدا من خمس مجلدات فى سيرة فولفجانج اماديوس موزار .. نظر الى زميله مبتسما ، وانزل بيده غطاء الحقيبة ، وحياتى فى ادب بالغ ! ..

قضيت فى بعض جمارك الشمال الافريقى ما لا يقل

عن ساعتين املأ فى أوراق واستمارات أختمها من شباك الى شباك .. فما هو الدرس الذى وعيت ؟ ..

البلد الذى تشغلك جماركه بملء استمارات وبطاقات وامضاءات وبصمات وأختام ، يعنى انه قليل الادراك لاهمية السياحة حتى لو قال بلسانه غير ذلك ، وأقسم ان لم يستغرق دخولى وخروجى من بلاد غربى أوربا وشماليها أكثر من ربع ساعة ! ..

لم يخفف هم العطل الكبير فى بلاد الشمال الافريقى سوى حسن المعاملة واشعارى من قبل السلطات بأنى أخ وضيف . ومثل هذا ، وخير من هذا ما رأيت وأشهد ، من أمانة ولطف وانسانية ، والاحساس بأننى اعود الى بلدى الحبيب . . . فى تلك المنطقة النائية عند الحدود المصرية الليبية ، وقد أصبحت نموذجا فى الدقة والحرص على أداء الواجب فى نزاهة ، وحسن ادراك الظروف . جزاهم الله عنا نحن السفار الابرياء كل خير .. فبمثل أولئك الرجال نتوقع اصلاح الحال ، وحسن المآل ، آمين ..

مصـــــر .. واسطة العقد بين المشارقة والمغاربة

فى حياة هذا المســـافر مفارقة بين ما تعلمـــه فى المدرسة ، وما خبره فى رحلاته .. عرف فى المدرسة ، والاطلاع العام ، المشرق الاسلامى اكثر من المغرب .. وكان الموكلين ببرامج التعليم فى زماننا وقفوا عند السلوم .. وطبيعى أن يتجه المغاربه والمشارقة الى ارض الوحى والرسالة والخلافه ..

شـــاءت المقادير ان تبدأ التجربة الحية لهذا المسافر فى المجموعة العربية بالمغـــرب ، قبل المشرق .. عندما سافرت منذ نيف وأربعين عاما من باريس الى تونس ، لاتابع بحثا علميا بمعد «سلامبو» الاقيانوغرافى بضاحية تونس .. بقيت هناك شهرا كاملا اعمل مع فرنسيين، واسكن فى نزل فرنسى بالضـــاحية .. وكنت أنزل الى تونس الخضراء فى اوقات فراغى للتجوال فى المدينـــة الآسرة ، والجلوس الى وراق امام جامع الزيتونة .. وتناول الطعام على مقربة من ذلك المكان .. وقد أزور متحف قصر « الباردو » ، فى الناحيـــة الاخرى من ارباض المدينة ..

واذا لم يسعفنى وقت الفراغ ، كنت اكتفى بالتجوال فيما بين ضاحية سلامبو وقرطاج لأزور آثار البونيقيين، ولم يبق منها الا القليل .. بعض المدافن ، ومعبد عربة

الفينيقيين « تانيت » وربهم « بعل حمون » وآثار الرومان وقد انتهوا الى القضاء على قرطاجة ، كخاتمة للحروب البونيقية بعد أن درج كاتون القديم فى مجلس شيوخ روما على تكرار تحريضه : « مهما كان الامر ففى ظنى يجب تدمير قرطاجة (كارتاجينم اسى ديلندم) » .

وأعرج على قرية سيدى أبو سعيد أجمل ما عرفت من القرى تنسيقا وموقعا وبساطة ونظافة ..

فى نهاية اقامتى بسلامبو ، سافرت الى القيروان مدينة عقبة بن نافع الفهرى فاتح المغرب ، أزور جامعها الكبير ، وما حوله من مساجد ، أذكر منها المسجد ذا الثلاثة البيبان ، ومسجد أبى زمعة البلوى .

ثم عبرت الى الجزائر لاقضى فيها بضعة أيام قبل العودة الى معملى بالسوربون . وفى الجزائر صدمتنى تجربة الاستعمار الفرنسى فى عاصمة من أبهى عواصم المغرب . اكتفيت منها بالصعود الى « القصبة » للاحساس بأهل البلاد الاصالى ، ولكى أطل على بحرنا من الاعالى . وقد كرهت أن لا أرى لاهل البلاد فى عاصمتهم التاريخية أثرا بين المستعمرين . فالمسجد الكبير فى المدينة المنخفضة قد تحول الى غير ما أنشىء له ، وغير ذلك من مظاهر عاصمة بمبانيها الفخمة وسكانها ، اقرب الى أن تكون مدينة فرنسية من مدن الجنوب .

وغادرت الجزائر بعد يوم وليلة عندما لم أطق البقاء فى ذلك الجو الاستعمارى الذريع .

وكنت قد عشت فى تونس تجربة استعمارية تركت فى نفسى جرحا عميقا ، عرفت فى زمانها باسم « المؤتمر الافخارستى » شاهدت الرسول الكاثوليكى يستقبله المقيم العام الفرنسى (الحاكم بأمر الجمهورية الفرنسية

العلمانية !) استقبال الفاتحين .. والسفن الداخلة ميناء تونس تحمل وفود المؤتمر تهزم بالتراتيل اللاتينية، وقد جاءت لتشيد بذكرى القديس الصليبى لويس التاسع أسير بيت ابن لقمان بالمنصوره ، والمتوفى بالوباء فى تونس .

ورايب الوفود تقف بتمثال الكاردينال لافيجرى المستعمر الدينى منصوبا قبل باب تونس الخضراء رافعا الصليب .

كما ذكرت وأنا بالجزائر واقعة بسيطة ، حدثت بباريس ، عندما تداولت بضع كلمات مع طالبة بمدرسة النورمال للموسيقى ونحن ننتظر مجيء الاستاذ .. عرفت منها بانها « جزائريه » فظننتها عربية او قبلية مسلمة ، واجابتنى بالنفى ، وأنها فرنسيه ابا عن جد، مولودة بالجزائر .. سألتها : اذا كنت جزائرية ، فكيف تصفين أهل البلاد الاصالى ؟ قالت : اوه ! .. انهم العرب .

استعيد هذه الذكريات الواخزة لاوضح واحدا من حوافز رحلتى الاخيره عبر الشمال الافريقى ، وهو العوده الى ما تصفه اللفه الرومانتيكية بمراتع الشباب.

أزيح تمثال لافيجرى ، وعاد مسجد الجزائر الكبير .. مسجدا .

حققت تونس بعد استقلالها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية العجب العجاب اتساعا ، وعمرانا وحضارة هى الصورة الحية لبلاد تعود الى أهلها ، وتنتظم توا فى سلك الحضارة الحديثة .

فهذا المعهد الاقيانوغرافى فى سلامبو اعود اليه بعد اربعين عاما وأزوره بصحبة العاملين فيه من علماء البحر التونسيين ، يواصلون بحوثهم لانماء الثروة المائية ،

فى جد وكفاية .

والمساجد الاثرية ترمم وتصلح فى تونس والقيروان وغيرها . والآثار والحفائر تتابع فى نشاط . وتنتشا المتاحف المحلية تعرض ما تخرجه بطون الارض .

فالحضارة فى تونس تنتهج السبيل ذا الشعبتين : الاحتفاظ بتراث الماضى : بونيقيا او رومانيا أو اسلاميا. والسير حثيثا فى مدارج الحضاره المعاصرة مع الحفاظ على اسلوب مميز فى البناء ، وفى الموسيقى والغناء ، يجمع بين الماضى والحاضر . واستطاعت البلاد أن تتحول باثارها وطرقاتها وشطآنها وجزرها الى بلد سياحى من الدرجه الاولى ، يؤمه الوافدون من اوربا وامريكا يمتعون الجسد والروح بما يقدمه العمران الحديث من فنادق وشواطىء ومهرجانات تفاقية للسينما والمسرح والموسيقى .. وما يقدمه التاريخ العريق من اثار العصور السالفة ، وعصر الفتوح الاسلاميه ، فنا وفكرا وأدبا .

كان ما رأيت فى عودتى الى الشمال الافريقى صورة حية « لعودة الروح » فى لغة توفيق الحكيم .

وامسك عما قد يساء فهمه اذا ما حاولت التعبير عما تجيش به نفسى من أسى على بعض مآخذ هذه العودة .

سمعت شخصين من عامة الشعب فى بلد من بلاد الشمال الافريقى ، أشبه بمثلهما من حى باب سدرة أو باب الشعرية ، فتى وفتاة يتبادلان حديثا خاصا .. بالفرنسية ، وهذا فى رأيى انكى وأقسى من أن يضطر الكاتب هناك الى تأليف قصصه وتمثيلياته بتلك اللغة. فلا أقل هنا من ان اولئك الكتاب يدافعون عن قوميتهم ، ويقدمون صورا فنية واجتماعية وتاريخية لاهلهم وعشيرتهم يطالعها العالم فى لغة أوسع انتشارا وأسهل

منالا من غيرها .

اما ان تتحدث بنت البلد زينب ، الى قريبها أو خطيبها محمد السلامي .. بالفرنسية ، فهذا مما يثور له الضمير القومي . واللائمة فى هذا تقع على المستعمر الحديث الذى قارب فى عتوه واستثاره التشبه بما صنع مستعمرو العصور الخالية بشعوب الآزتك والانكا والهنود الحمر

والحافز الثانى ، والاهم لرحلتى الخاطفة الطويلة عبر اسبانيا والشمال الافريقى هو التقصى العملى للصلات الحضارية بين الدول الاسلامية فى الاندلس وبين بلاد المغرب .

نما هذا الحافز فى نفسى عندما زرت المغرب لاول مرة عام ١٩٥٨ ، فى مؤتمر للدول العربية دعت اليه حكومة المغرب ونظمته اليونسكو . ودعانا صديقنا الكبير الاستاذ محمد الفاسى وزير المعارف فى ذلك الوقت ، ورئيس المؤتمر ، الى حفل موسيقى غنائى كبير بمدينة فاس شاركت فيه جوقات من تطوان وطنجة وفاس والرباط . سمعنا فيه ادوارا نموذجية ؛ وموشحات قديمة ، قيل انها تمثل البواقى الحية من موسيقى الاندلس .

لم أكن زرت الاندلس حتى ذلك الوقت ، وكانت معارفى عنها ضئيلة لا تتعدى حكاية عبور طارق بن زياد المضيق الذى يحمل اسمه ، وحكاية تدمير سفنه ، ولم اقبلها على علاتها ولا صدقت ان طارقا البربرى هو صاحب الخطبة التى حفظناها ، وتبارينا فى القائها بالطريقة التمثيلية الفجة .

وقد تمتد معارفى (؟) الى ما قرأناه جميعا . ورأينا صوره عن قصر الحمراء ، ونهاية أبى عبد الله بخروجه

من ملكه بغرناطة باكيا . فاذا بأمه تعنفه بكلمة من اقصى ما عرف التاريخ . قرات تاريخ صقر قريش عبد الرحمن الداخل وشذرات عن عبد الرحمن الناصر والطوائف والمرابطين والموحدين ..

اما تاريخ المغرب ذاته ، وحضارته ، وأسره الحاكمة فقد سمعت بها فى تلك الزيارة الاولى ، امام مدافن المرينيين والسعديين . وهناك قيل لى بأن حضارة الاندلس نبعت من حضارة المغرب ، وان المرابطين والموحدين اقاموا دولهم بالمغرب ، وعبروا المضيق استجابة لمعونة الاندلسيين حين ضيق ملوك قشتالة واراجون عليهم الخناق فى عمليات الاسترداد. فأنجدوهم واستقروا هناك فاتحين جددا .

كما علمت ان تحرير الاسبان لبلادهم نهائيا ، واضطهاد المسلمين واليهود دفع بهؤلاء الى عبور بحر الزقاق الى المغرب حيث استقروا نهائيا ، وما فتئت أسر كثيرة بالمغرب تحمل أسماء أولئك اللاجئين .

الحافز الاكبر للرحلة الطويلة عبر اسبانيا والشمال الافريقى كان اذن : متابعة الوحدة الحضارية بين الاندلس والمغرب الاقصى ..

وما من شك فى ان ذروة هذه الرحلة حول حضارات عزيزة على قلب المشارقة والمغاربة تحققت فى غرناطة ، وقد اختار لى الحظ أن اقيم على قيد خطوات من قصر الحمراء وحصونه ، والمصيف الملكى فى « الخنراليفة» أو ما يعرف « بجنة العريف » .

« وعجيب الزمان غير عجيب » فى قول ابن الرومى : أن أجمع فى خلال بضعة أشهر رحلة الى الفن الاسلامى المغولى بشمالى الهند .. أى ما يكاد يمثل أقصى الفن

الاسلامى شرقا (*) والى الفن الاسلامى بالمغرب والاندلس فيما هو فعلا أقصى امتداد لهذا الفن غربا وشمالا ..

لقد عبر طارق بن زياد الى الاندلس ، فيما يقال ، من طنجة الى الجزيرة ، وكانى بزيارتى لأسبانيا من الشمال الى الجنوب ، وعبورى الى المغرب من الجزيرة الى سبتة ، سلكت طريق الفتح والخروج لدولة الاسلام فى الاندلس .

ولعلى أستطيع فى هذه العجالات تسجيل انطباعاتى من آثار تلك الحضارة الزاهرة بعد الاطلاع على كتب أعلامنا من « المتغربين » المصريين : المرحوم عبد الحميد العبادى ، والاساتذة محمد عبد الله عنان ، وحسين مؤنس والسيد عبد العزيز سالم وعبد العزيز الاهوانى ومختار العبادى وغيرهم ممن أتحفوا وأثروا المكتبة العربية بمجموعة قيمة حقا من الدراسات المتخصصة مختصرات ومطولات ومترجمات .

(*) سنة ١٩٧٠ . انظر كتاب « سندباد فى هندباد ».

ولا غالب إلا الله

« يقدم الينا التاريخ الاندلسى فى مراحله الاولى ، صفحات باهرات من ضروب المجد الحربى والسياسى ، وآيات ساطعات من ضروب التمدن والعرفان ، ولكنه يقدم الينا فى مراحله الاخيرة ، صفحات مشجية مؤثرة ، من تقلب الجدود وتعاقب المدن ، والانحدار الى معترك الهزيمة والذلة ...

ولكن الصراع الطويل المضطرم الذى خاضته الامة الاسلامية فى الاندلس ، قبل ان تستسلم الى قدرها المحتوم ، يبدو صفحة رائعة من الاستشهاد المؤثر ، قلمايقدمها الينا تاريخ امة من الأمم ...

محمد عبد الله عنان :
نهاية الاندلس

« ارتفاع شأو الحضارة الاسلامية وتدهورها واحد من المعالم الكبرى فى التاريخ .

ولمدى خمسة قرون ، من سنة ٧٠٠ م حتى سنة ١٢٠٠ م ، قاد الاسلام العالم سؤددا . ونظاما ، واتساع منك ، وأسلوبا فى الحياة رقيقا مهذبا .

كما قاده فى نماذج المعيشة ومستوياتها ، وفى التشريعات الانسانية الحانية ، والتسامح الدينى ، وفى مجالات الادب وبحوثه ، وميادين العلوم ، والطب ، والفلسفة » .

ول ديورانت :
«عصر الايمان»

ما أشبه اليوم ، فوق مرتفعات قصر « الحمراء » وقصبته ، تطل على غرناطة ، بالبارحة وأنا مقبل على مدفن « تاج محل » درة أجرا بشمال الهند .. تشوق

الى الرؤية الواقعة لاثر عرفته منذ مطالع الصبا ، بالرسم والصورة والوصف والصيت . وتوجس أن ينتقص الواقع من روعة التصور ..

وكان الواقع فى الحالين مؤيدا لحقيقة من حقائق الفن .. وهو ان لا خطر من الواقع عندما يبلغ الاثر المعمارى قمة نمطه وأسلوبه ، فيكون النموذج الارفع والمثال الاعلى لفن بعينه .

حقيقة تبينتها ووعيتها فى مواجهة « البارتينون » فوق اكروبول أثينا ، وكاتدرائية « شارتر » فى الجنوب الغربى من باريس ، و « تاج محل » بالهند ، وقصر « الحمراء » بالاندلس .

فى شبابى الاول كنت أتقدم الى العمل الفنى الكبير متهيبا ، متفتح أبواب الحماس .. مقدما .. وفى شيخوختى أتصنع الهدوء وعدم المبالاة ، فأكذب على نفسى ، وانما أتلمس وسيلة خارجة عنى ، تعيننى على لقاء عقلى ، يسبق العناق الفنى .

فقد هدأت الممارسة العلمية أجيج الرومانتيكية ، واصبح العقل ، على الرغم من حمى الاحساس ، هو المسيطر وحده . فاذا انفجر الاحساس وتغلب بذاته ، كان لى فى الانفجار عذر ودلالة .

ولجت مع حشد من السائحين أبواب « الحمراء » ، ومررنا بالقصر الدائرى النشاز الذى اقامه شارلكان مزاحما مناكفا لقصر بنى الاحمر ، مع انه القائل يوم أطل من طنف « الحمراء » على الرياض والمياه الجارية : « ما أتعس من شاء له حظه العاثر فقدان كل هذا » ، مشيرا الى أبى عبد الله آخر ملوك غرناطة .

واذا بشحط عتل امريكى يضرب بجماع يديه بابا موصدا من أبواب قصر شارلكان ، ويرفع عقيرته

بالاحتجاج ، ونسعى لتهدئة ثورته ، فيأنس الى ، ويترك الباب ليمشى الى جانبى ، يشكو الاستغلال الفاضح للسياح ، ويخرج بطاقة دخول ليؤكد لى احتواءها على اذن بزيارة قصر شارلكان ، ويقول : هؤلاء الناس لا يقدرون ما يتكلفه السائح من مال وجهد وعناء ليشهد آثارهم . انني حفيت مشيا لازور هذه الروائع ..

قاطعته : ولكنك تطرق باب قصر على هامش ماجئنا لرؤياه ، ولا قيمة ..

واستمر فى كلامه دون ان يعير انتباها الى ما أقول :

ـ حفيت مشيا .. انظر :

وخلع حذاءه ليشهدنى على خرق واسع يطل كالطاقة المستديرة ، من وسط نعله ..

كتمت ضحكى ، ورثيت لرجل يهذى ، تسلمه الحراس والناس ، ولا أدرى ما صنعوا به فلم أره خلال تجوالى بقاعات « الحمراء » . . .

وعبرت ذاكرتى واقعة بالامم المتحدة ، اشتد فيها غضب رجل كان عظيما فى قومه ، فخلع حذاءه ، واخذ يضرب به على المنصة فى ايقاعات عنيفة تصاحب خطابه.

وقبل أن اتجه بكافة حواسى الى تأمل «تاج محل» ، استوقفنى فى الحديقة قرد ظريف ، حييته بالانجليزية : هالو ياكابتن ! .. ويبدو انه استقبل الرتبة راضيا !

لا تتوقع منى ان افصح عن انفعالى ، أو أن أستعير ثرثرة الادلاء ، وجلها حكايات وأساطير لا تترك لك متنفسا ولا فسحة تأمل .

ومن ذا الذى لا يعرف قصر « الحمراء » أبهاءه ، وعرصاته المكشوفة ، وانسياب الماء من أفواه سباعه ، وخريره فى القنوات . ومن لم ير صور سقوفه وحلياتها ، وتيجان عيدانه ، وزخارف اركانه وحيطانه

.. وكلنا ، حيث نشر الفن الاسـلامي آثاره شرقا وغربا ، متمرسون بالتنويعات الموسيقية للحن واحد يتالف من اقواس ، وخطوط ، واستلاكتيتات ، وسيقان نبات بأزهاره ، ولوحات الخط العربى بأشكاله، تقرأ بسهولة فى حديثها ، وبصعوبة فى قديمها .

وقصر « الحمراء » يجمع بين عمارة وظيفية منطقية فى ابراجه العارية ، وأسواره ، وبين زخارف حيطانه وعمدانه وقبابه وأسقفه ، مقابلة فنية ومعارضة بين عمارتين : الذكر والانثى .

كان خاتمة ساحرة للفن الاندلسي ، فن الغروب ، فى عصر بنذر بنهاية الدولة الاسلامية الزهراء ، تقوضت دعائمها ، وانتزع الاسبان أوراقها كالخرشوفة ، بقوة الارادة والتماسك والمثابرة فى مقابل خلافات الاندلسيين عربا يمنيين وشواما وبربرا وموالى ، وتطاحنهم ، وطلابهم العون على أهلهم ، وبنى جلدتهم ، باستعداء عدوهم المتربص بهم ، يضرب بعضهم بالبعض ، ويضيف حزازاتهم القبلية ، وأطماعهم الملكية ، الى أسلحته المدمرة ..

لقد استطاع بنو « الاحمر » تأجيل النهاية ، واستمهال القضاء المحتوم زهاء مائتين وخمسين عاما. ودفع رأس الاسرة محمد بن يوسف.. بن نصر بن قيس الخزرجى ، ثمن ذلك استكانة وخضوعا للعدو ، أو كما يقول الاستاذ محمد عبد الله عنان :

« وعاون ابن الاحمر النصارى فى الاستيلاء على ثغر قادس ، وهكذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الارض الاسلامية الواقعة غربى ولاية الاندلس، واخذت رقعة الدولة الاسلامية تنكمش بسرعة مروعة .. وكان موقف ابن الاحمر من هذه الحوادث موقفا شاذا مؤلما..

ولو انه كان يقبل هـذا الوضع المؤلم انقاذا لتراث لم يكتمل الرسوخ بعد . . . وهكذا فقدت الاندلس معظم قواعدها التالدة فى بحر ثلاثين عاما فى وابل مروع من الاحداث والمحن ، واستحال الوطن الاندلسى الذى كان قبل قرن فقط ، يشغل نصف الجزيرة الاسبانية ، الى رقعة متواضعة هى مملكة غرناطة .. ونظم شاعر العصر ابو الطيب صالح بن شريف الرندى مرثيته الشهيرة :

لكل شىء اذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش انسان
هى الامور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته ازمان

... ...

... ...

اعندكم نبأ من اهل اندلس
فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
أسرى وقتلى فما يهتز انسان

***

قضيت فى قصر « الحمراء » وابراجه وسوره ، اليوم بطوله ، ويوما ثانيا ، ثم ثالثا فى « جنة العريف » ، وكأننى انقب عن كنوز مخبوءة تحت الارض كما يجىء فى اساطير وروايات الاسبان الى عهد قريب .

ولا احسب ان فن « الحمراء » ، هو الذى جذبنى وحده الى ذلك الاثر العظيم . فلو اننى لبثت فى اجرا اكثر من يوم ، لما وجدت فى نفسى دافعا للعودة الى « تاج محل » .

ولكن فى فن « الحمراء » ، وفى لون حجارتها ،

وفى موضعها فوق الهضبة ، وفى أبراجها السامقة العارية ، وفى رياضها ، ومغانى « جنة العريف » ، سحرا خفيا ، ليس مصدره الانفعال الفنى وحده ...

انما أساسه ـ بعد تعمق التحليل لاحساسى ـ هو « حركة التاريخ » ، وكأننى أراها قبل حدوثها ، نذرا رهيبة باقتراب النهاية المفجعة .

و « حركة التاريخ » كلمة كبيرة . فلنتواضع ، ولنعد الى الشعر العربى القديم :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

اجل ، هو ذاك : الجذور الشعرية فى نفوسنا ، تأصلت فى البكاء على الدمن والاطلال . أليست هذه مأساة التاريخ المصرى بطوله فى قرار أرواحنا ؟

وحاشا أن تكون « الحمراء » طللا ، بله الدمن .. فما برحت عروس الزمان ، شاهدة على مجد غابر ، وسؤدد زائل ...

وللحفاظ على هذا الاثر الساحر تاريخ حافل . فقد هزته الزلازل فلم تدك سوى سقف واحد ، وبعد أن سكنه ملوك الاسبان عقب « الاسترداد » .. هجروه وأهملوه ففشاه النور واللصوص والمهربون. وفى هذا يقول المستشرق الاسبانى اميليو جارثيا جومث :

« الحمراء فى أكثرها هشة ، مما يجعلنا نتساءل : كيف استطاع الهش المعرض للزوال أن يبقى ؟ » .

وذهب فى تفسير ذلك مذاهب شتى مغلفة بفلسفة غامضة .. انما الذى أهدف اليه هو تحليل نظرتى الى « الحمراء » التى نجح الاسبان فى الحفاظ عليها بالاصلاح والترميم والتهذيب ، واحاطتها بكل ما يحفظ رونقها على الزمان .. أجل ! لسنا أمام بناء عتيق

يتداعى وسط العشير . وصدق جارثيا جومث حين قال :

« قصر الحمراء ليس اجمل القصور العربية القديمة فحسب ، ولكنه اكثرها احتفاظا برونقه ، واقدمها ، بل هو الوحيد الباقى من العصر الوسيط » .

نظرتى الى « الحمراء » كانت نظرة الحسرة فى عينى امرىء القيس وهو يتأمل سقط اللوى بين الدخول وحومل . صعدت اليها تعتمل فى نفسى مأساة «خروج» أبى عبد الله ، سليل بنى نصر ، على وجهه ، بعد تسليم مفاتيحها الى الملك الاسبانى ، وتقول الرواية ان أبا عبد الله وقف على أكمة بعيدة يملى ناظره بآخر صورة لملكه ومقر ملكه ، فخنقته العبرات ، وأجهش بالبكاء . فصاحت به أمه عائشة الحرة : « فلتبك بكاء النساء ملكا لم تستطع ان تدافع عنه دفاع الرجال» . وتعرف تلك الاكمة عند الاسبان باسم « زفرة المغربى الاخيرة » .

بهذا الشعور طالعت شعار بنى نصر بتكرر مئات المرات وسط زخارف قصر الحمراء « ولا غالب الا الله » . فى كافة الاوضاع والاشكال، فى دوائر وبيضاويات ومربعات ومستطيلات . لا تحوجك لاماته والفاته الفلابة الى تركيز بصر لتطالعه على القرب والبعد ، فى يسر الخط أو تعقيده . وقد تطالع هنا وهناك فى تكرار مشابه : « العزة لله وحده » . « الملك لله وحده » ، فلا تضيق ذرعا بهذا الترداد .. أما الشعر فى مدح الامير ، أما آيات الذكر الحكيم ، فهى أقل مما كنت أتوقع .

واذا كان الشعار الفلاب يؤدى دوره الزخرفى احسن الإداء ، فى مقابلة فنية للتشابك « الارابسكي » ..

فقد تساءلت عن العلة فى تكراره ..

لان رنين هذا الشعار فى نفسي يتصل راسا بالنهاية المحزنة . هو عندى نذير بالمأساة .. اذ أطالعه وقد تم فصولا . فى حين ان الآمر ببنـاء القصر ، أو بزخارفه لم يكشف عنه حجاب الغيب ..

كنت اشعر وسط هذا الجمال المتالق الفتان ؛ كلما قرات « ولا غالب الا الله » انى اجوب وسط المقابر ؛ اردد فى نفسى : « البقاء لله وحده » ... « البقاء لله وحده ، هو الحى القيوم » .

وربما اتخذ ترداد الشعار هذا المعنى : لقد فتحنا وظفرنا ، وحكمنا ، ونعمنا . أقمنا حضارة رفيعة واوربا فى غفلة من الزمان ، تعمه فى ظلام العصر الوسيط ، ننشر عليها ، ومن كل ركن فيها ، ضياء ونورا .. كانت لنا الغلبة فى الاولى ، وفى الثانية كانت الغلبة لعدونا .. « ولا غالب الا الله » !

ما اكثر ما بحثت فى صحائف التاريخ عن هذا الشعار النذير ، وكيف اختاره راس الاسرة محمد بن يوسف .. بن نصر بن قيس الخزرجى .

وكانت الاجابة على قيد صفحات لم اقراها ؛ من كتاب كنت اتسلى بقصصه وحواديته عن قصر الحمراء دون اخذه مآخذ الجد ـ الفه الكاتب الامريكى واشنطن ايرفنج (١٧٨٣ ـ ١٨٥٩) الذى عاش فى قاعات الحمراء زمانا ، وكان سفير الولايات المتحدة فى ثلاثينات القرن الماضى ؛ والف كتابا عن «فتح غرناطة» ؛ وكتابا ثانيا عنوانه « قصص من قصر الحمراء » طالعته دون نظام ، يثقل على بأسلوبه المعسل المطوط ، على الرغم من ملكة رومانتيكية فى السرد ، لا بأس بها ابدا ...

ثم تنبهت الى ان آخر فصلين من فصـوله يتحولان عن الاساطير ، ليحدثنا الاول عن « محمد بن الاحمر » منشىء الحمراء ، والثانى عن ابى الحجاج يوسف بن ابى الوليد ، من اعظم ملوك بنى نصر، وكان عالما وشاعرا يحمى الآداب والفنون ، وهو الذى أضـــاف الى « الحمراء » أعظم منشآتها واجملها .

يصف واشنطن ايرفنج عودة محمد بن يوسف الى غرناطة ، بعد ان ساعد الملك فرناندو الـكاثوليكى على فتح اشــبيلية المسلمين .

فعندما قارب الظافر الحزين بلوغ عاصمته الحبيبة، احتشد الناس احتفاء بأميرهم الغالى ، فقد احبوا فيه ولى نعمتهم . وأقاموا أقواس النصر على شرف ظفره المؤلم . وكلما مر بحشود النـاس هتفوا جميعا بحياة المنتصر «الغالب» . فكان محمد بن يوسف يهز راسه ، ويرد على الهـاتفين ، « ولا غالب الا الله » ، وكأنه يستغفر ربه عما دفعته اليه مآزق السياسة ، والحلف الشيطانى مع عدوه .

ومنذ تلك اللحظة ذهب احتجاج ضميره هذا شعارا للملك ، امر بنقشه على رنكه ، واستمر شعارا لخلفائه من بعده .

مابين الرّصافة والجسر

« والجامع قد كسى ببردة الازدهـاء ، وجلى فى معرض البهاء ، كأن شرفاته فلول فى سنان ، او اشر فى أسنان .. وللذبال تألق كتصنصنة الحيات ، او اشارة السبابة فى التحيات ، قد اترعت من السليط كؤوسها ، ووصلت بمحاجن الحـديد رؤوسها ، ونيطت بسلاسل كالجـذوع القائمة ، او كالثعابين العائمة » .

أفادكم الله يا ابا محمد يابن صاحب الصـلاة
فكأننا يا بدر لا رحنا ... ولا جينا !

« اذا مات عـالم باشبيليه ، حملت كتبه الى قرطبة ، حتى تباع فيها .

وان مات مطرب بقرطبة ، واريد بيع آلاته ، حملت الى اشبيليه » .

المقرى فى « نفخ الطيب »

كانت أولى مشـاهداتى لبعض آثار الحضـارة الاندلسية فى « شنترة » من ضواحى لشبونة (١٩٥٤) ، حصن مغربى بأعلى الجبل ، وقصر فوق سفحه أقيم فى القرن الرابع عشر ، أى لنحو قرنين بعد اسـترداد البرتغاليين لمدينة «أشبونة» . طرازه اسلامى ، يدل فى الاقل على ما كان لفن المغاربة من أثر بعيد على نمط العمارة فى شبه جزيرة ايبريا .

وفى زيارة عابرة لمدريد عام ١٩٥٨ ، خطفت الى طليطلة ، مربوطا بمقود الدليل ، فلم أر من آثارها الاسلامية القليلة سوى النزر اليسير : بقايا الاسوار ، وقنطرة على نهر التاجة (٩٩٧ م فى حكم المنصور بن أبى عامر) .

وفى زيارتى الثانية لاسبانيا (١٩٧١) ركزت على الاندلس ، فعبرت من سان جان ده لوس بفرنسا الى سان سباستيان باسبانيا ، ومنها الى بورجوس (برغش) لادور وازور متعجلا كاتدرائيتها العظيمة ... دون تأثر وفى مدريد عدت الى لوحات فيلاسكيت وجويا بمتحف « البرادو » ... ثم انطلقت الى قرطبة دون توقف .

ويجدر بالزائر العربى اذا خصص اجازة للكشف عن بقايا الحضارة الاندلسية أن يصطحب كتاب الاستاذ عبد الله عنان : « الآثار الاندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال » ، فلم يترك المؤلف حجرا اسلاميا فى الطبيعة أو فى المتاحف دون ذكر أو فحص أو تأمل .

كما يطيب التنويه بكتاب صدر حديثا عن « أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوروبية » ، مجموعة دراسات أعدت باشراف مركز تبادل القيم الثقافية بين الشرق والغرب ، متعاونا مع « اليونسكو » .. ففى فصله الاول بحث عميق فى « الادب » ، شارك فى اعداده الاستاذان : الدكتورة سهير القلماوى ، والدكتور محمد على مكى ، الرجل الذى جمع بين التفقه فى لغته ، واللغة الاسبانية قديمها وحديثها ، فيحدثنا عن «شيوع اللغة اللاتينية الدارجة ، الى جانب العربية بين المسيحيين والمسلمين الاندلسيين ، ثم ماتنتج عن ذلك كله من ظهور لون جديد من الشعر الاندلسى فى القرن التاسع

الميلادى - هو الذى عرف بالموشحة ، ومنه تفرع الزجل » .

وعالج الفصل المجموعات القصصية التى وصلت اوربا فى مطلع الرينسانس وتكلم عن الشعر الملحمى والمسرح ، وخاصة ملحمة « السيد كامبيادور» ، واثر الشعر الاندلسى فيها ... الخ

***

قرطبة ! ياله من اسم مجلجل باهر فى تاريخ الحضارات ! .. ومن منا لم يسمع بجامعة قرطبة ، المصباح المنير فى ظلام أوروبا العصور الوسطى .

المدينة التى اتخذها عبد الرحمن الداخل ، صقر قريش ، حاضرة لدولة أموية مجددة ، انشأها بالاندلس ومهد لها حضارة تزهر بالعلماء والفلاسفة والشعراء والفنانين . وزاد فى عزها وسؤددها الفكرى والحربى عبد الرحمن الناصر ، ومن بعده ابنه الحكم المستنصر، ذلك الامير العلامة الذى قيل فيه : « قلما وجد كتاب فى خزانته الا وله فيه قراءة أو نظر أو تعليق .. كما كان يقرب العلماء والادباء والمؤرخين ، ويستقدم المشارقة منهم ، مثل أبى على بن القاسم القالى، الذى طرز كتابه « الامالى » باسم الحكم المستنصر بالله » .

وتحضرنى واقعة ظريفة لابن هذا اللغوى الكبير ، وكان الابن أديبا شاعرا ، بنى له أبوه بقرطبة مرتبة ملحوظة .

وكان مقربا على الحاجب المنصور ابن أبى عامر . دخل عليه يوما فقال من أراد أن ينكت عليه : يامولانا ، هذا هو القالى (بمعنى الكاره) ، فرد الكيد الى النحر اطلاقة رصاصة ، اذ قال : القالى لاعداء الحاجب أذلهم الله بعزته .

ثار فى خاطره أن يرحل الى موطن ابيه ببغداد ، فلما حل بها كذبت عينه ظنه ، فرجع لا يلوى على متعذر ، ولا يمر بغير مستكره عند متكدر ، وأنشد :

أصولى فلما أن حللت ببغداد
رأيت ديارا يبعث الهم لحظها
وقوما يسومون الغريب باحقاد
فوليت عنهم عائدا غير عاطف
وان كان فيما بينهم نشء أجدادى
وجزت على مصر فغمضت مقلتى
وقلت بعنف : مغرب الشمس يا حادى

وكان أشد ما لقيه ببغداد انه حرد يوما بحضرة جماعة منهم ، وأفرط فى سوء الخلق ، فقال احدهم : يا هذا . بئس ما عوضتنا عما نقله ابوك (أى صاحب « الامالى ») من بلدنا الى المغرب ، حمل عنا علما وادبا ، وجئتنا بجهل وسوء ادب . فنهض من حينه قائلا : المشى يلزمنى الى مكة حافيا راجلا ، ان قعدت لكم فى بلد من يومى هذا . وخرج .

اعترضه البواب وقال له : من اين أتيت يا انسان ؟ أجاب بشدة الغيظ : من لعنة الله .. فأوقفه وقال : اصبر حتى استأذن عليك . وكتب بالواقعة الى الوزير. فأشر الوزير البغدادى على المكتوب : لا ينكر هذا الخلق على مغربى فاطلقوه ينصرف الى موضعه الذى ذكر .

عن كتاب « المغرب فى حلى المغرب »

***

دخلت قرطبة عصر اليوم الذى غادرت فيه مدريد ، وكان قد وقع اختيارى على الاقامة بفندق من فنادق

الحكومة ، وهى المعروفة باسم « بارادور » ، وكانت فى بدايتها نوعا من « الاستراجات » الحكومية . و « البارادور » - حيث يوجد فى مناطق الآثار - يمتاز دائما بجمال الموقع ، وحسن الادارة وجودة الطعام . ولا يتمكن السائح من الفوز بحجرة فيه الا ان يبكر فى حجزها ، قبل وصوله بأيام .

دفعنى الى اختيار « بارادور الرصافة » اسمه ذو الرنين الشعرى فى نفس اهل اللغة العربية جميعا . يقع فى الربض الشمالى الغربى من المدينة ، وسط الرياض الغناء ، بالموقع الذى أقام فيه صقر قريش ، عبد الرحمن بن معاوية ناحية لنزهته واستجمامه ، سماها « منية الرصافة » ، أسوة برصافة جده هشام ابن عبد الملك ، التى انشأها فى الشمال الشرقى من تدمر بالشام .

كان حنين عبد الرحمن الاموى الى رصافة الشام يستأهل ان يوصف بحنين الغرباء الى الاوطان فى اللغات الاوروبية : « نوستالجيا » .

ويقال بأنه أول ما نزل برصافة قرطبة ، شاهد نخلة اهاجت منه ذلك الحنين الخاص ، فانشد :

تبدت لنا بين الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهى فى التغرب والنوى
وطول ابتعادى عن بنى وعن اهلى
نشأت بأرض انت فيها غريبة
فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى
سقاك غوادى المزن من صوبها الذى
يسح ويستمرى السماكين بالويل

وله أيضا :

أيهـــا الراكب الميمـــم ارضى
أقـر من بعـض السـلام لبعضى
ان جســــمى كما تراه بأرض
وفؤادى ومالـكيـــــه بأرض
قدر البين بيننـــا فافترقنـــا
وطوى البـــين من جفونى غمضى
قد قضى الله بالبعـــاد علينـــا
فعسى باقترابنـــا ســـوف يقضى

هـذا هو الامير الاموى طريد بلاده ؛ الهـارب من مذبحة اهله ، صقر قريش الذى اعاد مجد بنى أمية فى شــبه الجزيرة بأقصى المغرب ، فلم يخفف النجاح الباهر من لوعته وتحرقه على وطنه بالمشرق .

وما ان وضعت حقائبى فى « بارادور اروثانا » حتى هرعت منحدرا الى جسر الوادى الـكبير «جوادالكفير» لا الوى على شىء فى قرطبة الحديثة « كوردوفا » قبل ان اشـاهد المسجد الجامع ، أطوف بسـوره وأرتاد مرصاته ، اتوه بين سواريه ؛ رافع الراس الى عقـوده المزدوجة ، وما تبقى من محاريبه وقبابه .
حجيج المشوق الى أثر من أمجاد الانسانية عنـدما تعشق السلام ، وتخلد الى البناء .
حقب نادرة فى حياة الشعوب تسمو بها عن ضراوة الوحوش ، والوحش فى الانسان حى لايموت : معتديا اثيما ، او مدافعا عن الحمى والزمار كريما .

هاك اذن ، أيها المنتحى بالرصافة دارا ، هو جامع قرطبة الذى بناه عبد الرحمن الداخـل على انقـاض كنيسة عوض أصـحابها من بيت المـال (٧٨٦ م) ، واضاف اليه عبد الرحمن الاوسـط حفيـده ، فعبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم المستنصر بالله .

اثر حضارى اسلامى شوهته الحضارة الكاثوليكية ، عندما استاذن اسقف قرطبة الامبراطور شارلكان فى اقامة كنيسة جامعة (كاتدرائية) ، وسط المسجد الجامع ، واذن له .

لم يعرف الخلف : النصارى ، حق السلف : المسلمين . لسبب عجيب فى ذاته ، وان تكرر فى اكثر من موضع من الارض : هو اختلاف الديانة . بل المذهب او العنصر ، او الارومة ، او ما نريد .

كلا ! « لا تعذليه فان العذل يوجعه » لا تتعجلى اتهامه بالتعصب . كاتب هذه السطور . فقد حاسب نفسه وساءلها : ماذا كان شعورى ذات يوم من عام ١٩٢٥ . وانا اجتاز باب « اياصوفيا » واذكر ما صنع محمد الفاتح بالكنيسة العظمى فى عاصمة الامبراطوريه الرومانية الشرقية ، غداة فتحه للقسطنطينية . كان اتاتورك فى ذلك العام قد قضى بأن يتحول جامع « أياصوفيا » الى متحف . فازيل الملاط والبياض عن بعض حيطانه وظهرت صور بالفسيفساء (الموزايكه) تمثل الفن البيزنطى فى اروعه .

لم اكن احب للسلطان الفاتح ان يحول مكان عبادة الى عبادة اخرى مع ان العثمانيين لم يصنعوا بذلك الاثر العظيم اكثر كثيرا من اخفاء ، او ازالة ما لايقبله الاسلام من رموز وتصاوير .

ولم أرض ، ولا امنت على ما اتاه محمود الغزنوى بالهندوس ومعابدهم .

لم يكن عدم الرضا علامة تخلخل العقيدة او وهن فيها . بل كان جرحا لشعورى وايمانى بسماحة الاسلام .

ومن حقى اليوم ان لا ارضى بما اقترفه التعصب

بمسجد قرطبة الجامع ، وبغيره من روائع الآثار بارض الاندلس .

ولا أعدو فى ذلك ما يقوله علماء نصارى من الاسبان وغيرهم ، وهو ان ما حل بجامع قرطبة عمل همجى شنيع . وحتى الامبراطور نفسه ، الذى أذن لاسقف قرطبة بانشاء الكاتدرائية فى صميم الجامع ، لم يعتم حين رأى الصرح الفضولى الضخم ان أبدى سخطه . وندمه على ما أذن به . ويعزى اليه قوله للمشرفين على تشويه الجامع : « لقد بنيتم هنا ما كان يمكن بناؤه فى أى مكان آخر . وقضيتم بذلك على ماكان أثرا وحيدا فى العالم » .

هذا ما نقله الينا الاستاذ محمد عبد الله عنان ، ويبدو انه شاك مثلى فى أن يصدر هذا القول من شارلكان (قارلة الخامس) ، وهو الآمر بازالة جانب من قصر الحمراء بغرناطة ، ليبنى قصره النشاز على نمط الرينسانس ، كما قوض مسجد الحمراء ، لتقوم مكانه كنيسة .

وقد يعرف القارىء انى كثير الارتياد للمعابد ذات القيمة الفنية ، أيا كانت العقيدة التى ترسم طقوسها . فالمعبد فى كل دين يمثل أرفع وأبلغ ما يحققه الابداع الفنى للانسان ، المتميز عن الحيوان لا بالعقل وحده — ومن الحيوان ما تلوح عليه بعض مخايل النجابة — ولكن بالايمان أيا كان منحاه ومثابته . فلم يعرف الى اليوم مكان عبادة ولا مراسيم صلوات للقرود فى ارقى مراتبها .

ومن الميسور والمألوف ان يعبر المشاهد عن اثر جامع قرطبة فى نفسه ، فيكون الاعجاب بروعته وعظمته . ولكن الغيظ غام على اعجابى ، مثلما خيمت

حيطان المصليات الناشزة على عقود المسجد وسوازيه ، واعشى بصرى انعكاس ضوء الشموع على ذهب حقيقى او زائف .

لم يشوه مسجد قرطبة الجامع بكنيسة كبيرة فحسب ، كان الجامع جديرا بأن يبتلعها لقمة غير سائغة ، بل شوه بعدد من الكنائس الصغيرة أو المصليات يمكن حصرها ، ويرفض حنفى أن يكون لها حصر حتى لو كان عددها اقل او اكثر من أصابع اليد الواحدة . فقليلها المزوق المزدان ، كثير على الفن الرجولى الفحل الذى يشع من اشلاء جامع قرطبة ، واشلاء ليست التعبير الصحيح ، فجسد العملاق بقرت بطنه جيوش « لليوت » .

ولكم دمرت آثار وهدمت معابد فى كل مكان وزمان، بيد الحدثان أو الانسان . فنحن لا نذكر امام « البارتينون » ان أقواما من الهمج جعلوا منه مخزنا للبارود ، ينفجر ذات يوم فيما يكاد يعتبر حتما . وننعى اختفاء مساجد أثرية فى فتح الشارع ذى البواكى الموصل من العتبة الخضراء حتى القلعة . والمعابد المصرية التالدة التى اقتلعت حجارتها لبناء المصانع البائرة التى أقامها محمد على

ولكننا نتعزى بما ابقى عليه الزمان من آثار أجدادنا واسلافنا العظام ، فهو شىء قائم بذاته ، كمل او نقص.

اما أن نقف بميدان الرميلة (الاسم التاريخى القديم لميدان صلاح الدين حاليا) وسوق الخيل نتأمل مدرسة السلطان حسن ، ومسجد أمير اخور ، وقلعة صلاح الدين ، فيقذى العين منظر عمارات شائهة ، تمثل الجهالة والحمق ، فان للفيظ والحنق هنا الغلبة على الاحساس بالفن .

وتصور انك تشاهد جامع قرطبة وقد قضى البلى على بعض أرجائه مما يحدث لكثير من الآثار العظيمة فى العالم القديم والدنيا الجديدة .. انك تأسى لحاله ولكن احساسك بروعة بنائه وجماله ، ينسيك ما صنعته صروف الزمان .

اما ان ترى بعض أركانه ، ووسطه ، تحتلها ابنية مهجنة مستهجنة ، فان احساس الغضب قمين بالطغيان على ما عداه .

ويطيب جراح قلبى ان اطالع كلاما للعلامة الاسبانى المسيحى دون رودريجو قادور دى لوس ريوس ، استهل به كتابه عن المسجد الجامع :

« ان ثمة عالما من الذكريات يملأ مخيلة السائح ، حينما يسرح البصر بشعور من الاسى خلال هذه التشويهات ، تلك الاعمال التى أملاها ايمان أجدادنا المفرق المخلص معا ، فدفعتهم الرغبة فى أن يمحوا الى الابد روح محمد ، واطياف أوليائه الذين يغشونها ، وسوف يغشونها ما بقيت قائمة . ذلك انه بالرغم من كل ما أصابها من تشويه وتغيير ، فقد ختم عليها بخاتم الفن الذى أوحى بها وروح الامة التى صممتها واقامتها»

هذا بناقوس يدق

عندما استولى الادفنش (الفونس السادس) ملك قشتالة وليون على طليطلة ، ارتاع المسلمون فى الاندلس قاطبة ، وخفقت قلوبهم رهبة وتوجسا عبر عنه شاعر اندلسى بهذا النعيق :

يا أهل اندلس حثوا مطيتكم
فما المقام بها الا من الغلط
الثوب ينسل من اطرافه وارى
ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا
كيف الحياة مع الحيات فى سقط

كان سقوط طليطلة اولى حركات الاسترداد الكبرى التى انتهت باخلاء المسلمين عن ملكهم عام ١٤٩٢ م ، سنة اكتشاف كريستوف كولومب للعالم الجديد .

فكان لاستيلاء الفونس السادس عليها سنة ١٠٨٥ م ذات الصدى الذى تردد بين القوط الغربيين «الفيزيقوط» عندما وقعت عاصمتهم ـ توليدو ، اى طليطلة ـ غنيمة للمسلمين ، قبل ذلك بأربعمائة عام.

ولا يقاس معنى ذلك الشعور العام باهمية طليطلة فحسب ، كواحدة من مدن الاندلس العظيمة ، ولكن بالجو الذى اشتمل عملية الاسترداد ، وكان نذيرا بما

سوف يحدث مرارا وتكرارا على مر القرون التالية ، يواصل فيها الاسبان الضغط ، والحصار ، والمؤامرات والمعاهدات المنقوضة ، حتى يقضوا قضاء مبرما على الدولة الاسلامية الباهرة فى جنوب غربى أوربا .

لم يسترد الفونس السادس الحاضرة الكبرى بالحرب والحصار وحدهما ، بل اعانه على ذلك ملكها المدعو « القادر » ، واحد من اضعف ملوك الطوائف ، وصفه ابن بسام صاحب « الذخيرة » ، بأنه « كان آية فى قرب غوره ، امعة امرة ، أجبن من قبرة . ان حزم لم يعزم ، وان سدى لم يلحم » .

مج أهل طليطلة حكمه وثاروا به ، فولى الادبار ، وانتهى بما حدث وسوف يحدث طوال سنوات الاسترداد : سعى للعودة الى عرشه ، مستنجدا بملك ليون وقشتالة .. فما عتم هذا أن حاصر المدينة ، وفى ركابه الملك المطرود ، « القادر » على لا شىء ، سوى مصالح نفسه ، يدفع لها ثمنا خيانة شعبه ووطنه .

وعندما ضاق بأهل طليطلة الحصار خرج وفد منهم لمقابلة الملك القشتالى. ووصف ابن بسام المنظر المزرى : « أدخل الوفد على ادفونش ... فاقبل عليهم بوجه كريه ، ولحظ لايشكون أن الشر فيه ، وقال لهم : بأى شىء تطمعون ؟ قالوا : بنا بقية ، ولنا فى فلان وفلان أمنية .. وسموا له بعض ملوك الطوائف (اعتمادا على المعونة التى يتوقعونها منهم) .

فصفق بيديه ،وتهافت حتى فحص برجليه ، ثم قال : ابن رسل ابن عباد (صاحب اشبيلية) « فجىء بهم يرفلون فى ثياب الخناعة ، وينبسون بألسنة السمع والطاعة .. فقال لهم : مذ كم تحومون على ، وترومون الوصول الى ؟ ومتى عهدكم بفلان ، وأين ماجئتم به ؟

لا كنتم ولا كان ؟ فجاءوا بجملة مرة ، واحضروا بين يديه كل ذخيرة خطيرة . فما زاد على ان ركل كل ذلك برجله ، وأمر بانتهابه كله .

« ولم يبق ملك من ملوك الطوائف الا احضر يومئذ رسله ، وكانت حاله حال من كان قبله . وجعل اعلاجه يدفعون فى ظهورهم ، واهل طليطلة يعجبون من ذل مقامهم ومصيرهم . فخرج شيختها من عنده ، وقد سقط فى ايديهم ، وطمع كل شيء فيهم . وخلوا بينه وبين البلد لثلاثة ايام من ذلك المشهد ، ودخل طليطلة على حكمه ، واثبت فى عرصتها قدم ظلمه » .

وما ان لبث شهرا فى المدينة المنكوبة حتى « امر ادفونش بتغيير المسجد الجامع .. وحدثنى من شهد طواغيته تبتدره (اى الجامع) فى يوم اعمى البصائر . وليس فيه الا الشيخ الاستاذ المقامى (محمد بن عيسى) ، آخر من صدر عنه ، واعتمده فى ذلك اليوم ليتزود منه . وقد أطلق به مردة عفاريته (ادفونش) ، وسرعان طواغيته ، وبين يدى الشيخ احد التلامذة يقرا . فكلما قالوا له : عجل ، اشار هو الى تلميذه بان اكمل .

« ثم قام ، ما طاش ولا تهيب ، فسجد به واقترب ، وبكى عليه مليا وانتحب . والنصارى يعظمون شأنه ، ويهابون مكانه . لم تمتد اليه يد ، ولا عرض له بمكروه احد » .

هذه صورة نموذجية لمآسى « استرداد » الاندلس ، تخيلتها وانا واقف بميدان كاتدرائية اشبيلية ، واحدة من اكبر واعظم كنائس العالم ، احتلت مكان المسجد الجامع الذى هدم وقوض فيما عدا « صومعته » ، أى منارته او مأذنته .

وسطت المنارة ، واستبدل ببعضها الاعلى عمارة للناقوس ، يعلوها تمثال يدور مع الريح ، دوران التاريخ فى تلك البلاد العريقة ، مسيحية أو مسلمة .

تلكم هى « الخيرالدا » ، اى الدوارة ، وفى عاميتنا « أبو رياح » .

وعجيب من امرى أن اعزف فى اسبانيا عن زيارة اثر شائه ، كلما قرات فى كتب الادلاء عن قصر أو قصبة ، فعرفت ان قد أحدثت فيها تعديلات وتحويرات واضافات ، عقب الاستيلاء على ثغور الاندلس الكبرى. فلست المدله بعشق اشلاء الجدران والابواب والعقود، محشورة مطمورة وسط المبانى المجددة على مدى الاعوام والقرون .

انما « الخيرالدا » خريدة أخنى عليها الدهر، مافتىء العشاق يتغزلون فى بهائها . وزعموا ان أهل اشبيلية ، بعد الاسترداد ، مسيحيين ومسلمين ، قاوموا هدم منارة الجامع الزاهرة مع سائره ، فأبقى على بعضها . وبدلوا فى شطرها الاعلى ، وكأنها « مانكان » خشبى بلا راس ، يلبسها الحائك ما يعد من الثياب ، ثم يركب لها الراس المناسب لظروف العرض والبيع والشراء .

رايت اختها الكبرى بالجنوب المغربى قبل ان اشهد « الخيرالدا » فحفظت الود لخريدة مراكش الفتانة بلونها المحمر فى رائع النهار ، ووضح شمس الصحراء ، عند أقدام جبال الاطلس الشماء ، يجللها الجليد الدائم . هى المعروفة بمنارة « الكتبية » ، اسم الجامع الكبير الذى كانت تقوم حواليه حوانيت الوراقين ، مثلما رايت فى صباى « كتبية » الحلوجى تواجه الجدار الغربى للأزهر الشريف .

شاءت محاسن الصدف أن أقيم بفندق يحمل اسم

« المنارة » ، وأن أرى « الكتبية » من نافذة مخدعي، ما طلعت الشمس أو غربت على اجمل مدائن الجنوب المغربي ، مدينة يوسف بن تاشفين ، مؤسس دولة المرابطين الملثمين .

تراها من كل موضع بمراكش ، جوهرة تتألق في سماء عاصمة البربر ، عمودا مربع الاضلاع من نضار، اما « الخيرالدا » ، وزنقتها في كشح كاتدرائية اشبيلية، فلا سبيل الى تاملها ، الا أن يصيب العابر نافذة تطل عليها من البعد ، وكانت نافذة فندقي تطل هناك على الرياض التي اشتهرت بها المدينة الساحرة على ضفة الوادي الكبير .

سمعت باسمها لاول مرة من زميل لنا ، ونحن نتامل منارة « الكتبية » في زيارتي السابقة لمراكش ، عام ١٩٥٨ ، وكانت « الخيرالدا » على لسان زميلي شيئا يفوق جمالا وروعة منارة مراكش .

واعجبت أخيرا بمنارة اشبيلية اعجابا مهجنا ، على غرار جدها العاثر فيما أصابها وحاطها بكل جديد وغريب عليها ، وكافر بها .

حتى « البرج الذهبي » ، حارس ميناء الوادي الكبير ، انطفأ نوره في عيني ، لا يمثل شيئا له علاقة بعصر المعتمد بن عباد ، أو بغير ابن عباد.. فأنا اليوم ، قطعا ، في مدينة عصرية ، عاصمة الثراء والحظ والغناء « الهوندو » والرقص « الفلامنكو » . وما كرهت شيئا اكثر من الاثنين ، لا لعيب فيهما أو سوء ، ولكن ضيقا بنزولهما الى الاسواق نمرا بملاهي وكباريهات الشرق والغرب ، سلعة رخيصة ، مع انهما من اجمل وادق بواقي الفن الفولكلوري في العالم .

واشبيلية مدينة مصارعي الثيران ، وما كرهت شيئا

اكثر من كرهى لمصارعة الثيران ، لم أر منها الا حفلا في باحة المسرح الرومانى بمدينة نيم فى البروفانس ، كان اشبه بتمثيلية منه بصراع حقيقى ، اكتشفت امرها بعد نهايتها ، عندما سمعت بعض المتحمسين الفرنسيين يحتجون على صغر سن الثيران التى قدمت ، وقتلت وسحلت الى خارج الحلبة .

وما هو ذلك الصراع غير المتكافىء حتى فى أعظمه ؟ كوكبة من المهرجين الراجلين والراكبين خيولا عجافا ، يرشقون جسد الثور بسهام مريشة ، ويطعنونه بمزاريق طويلة ، فاذا ما كل الوحش جريا ومطاردة وخوارا انفرد به « التوريرو » ـ ولو انفرد به قبل رشق السهام المريشة فى لحمه ، لكان للصراع الرهيب معنى ـ ووقف وتحرك يستثيره بالقباء الاحمر ، ويخفى فى طياته سيفه البتار ، الثور هائج يرغي ويزبد ، و « الزول » يدور على مشط قدميه ، ويجثو على ركبة ونصف فيصرخ الجمهور اعجابا « أوليه ! » ، يتحدى المصارع نحيته الهالكة حتما الا اذا لم تتقبل السيدة العذراء صلاة البطل مقتول العضل ، ممشوق القوام .

كنت فى ذلك الزمان غرا شرها الى المعرفة ، طالعت قصة بلاسكو ايبانيث « الحلبات الدامية » لا لشىء سوى اشتمالها على شرح مفصل واف لقواعد اللعبة الوحشية .

لافضلن عليها رواية « كارمن » بموسيقى جورج بيزيه ، أحفظ الحانها واعزفها من قديم ، وهانذا يتردد على الفور فى راسى غناء كاميللو ، ذلك الديك الرومى ، منفوش الريش ، يدخل على مارش « التوريادور » ، مختالا كالطاووس فى طريقه الى ميدان الصراع . . .

بأشبيلية ، منتفخ الصدر والاوداج ، يحب لفافة السجاير ، الفانية كارمن ، صديقة قطاع الطرق والمهربين ، وقد تزيت فى ذلك اليوم بأجمل ملابس الاندلسيات ، تغطى رأسها « المانتلا » السوداء ، لتشهد حبيبها « التوريرو » المعظم فى ذروة انتصاره .

لعله انتصر وفاز ، على تصفيق الجماهير المتعطشة للدماء ، اما هى كارمن ، فلم يترك لها دون جوزيه ، العشيق المحقر المهجور ، سبيلا الى باب المدرجات ، حاورها محاورة الثور وقضى عليها قبل ان يقضى كاميللو على الثور الهائج .

قتلها باسم الغيرة ، الحاسة الحيوانية التى لا تعرف لها قطاطى اسما ، ولكن فعلها لا يقل عنفا فيها عن عنف العاقل ، ابن حوة وآدم ..

لافضان ايضا الاحتفاظ فى صميم روحى بكوميديا بومارشية « حلاق اشبيلية » ، وبموسيقى روسينى ، وأعز من كل هذا « زواج فيجارو » ، اوبرا موزار الخالدة ، وفيجارو هو حلاق اشبيلية ، رب الحيل .

لا يعنينى من اشبيلية مغانيها ومقاهيها وكهوفها تردد أصداء الهوندو والفلامنكو وطرقعة الصاجات الخشبية وموسيقى الغجر ، فلست من ابناء الليل ، ولدت فى الفجر ، انا سائح رائعة النهار ، آوى إلى فراشى مبكرا كالدجاج ، منهكا من السير والمشاهدة والانفعال بالآثار .

نعم زرت كاتدرائية اشبيلية ، افخم ما شهدت من كنائس ، وعبرت غير مكترث بقبر الملكين الكاثوليكيين ، وادرت البصر والخطا حول جدث ذلك الايطالى العظيم ، ابن جنوا ، كريستوف كولومب .

نعم ، تجولت فى حى «سانتاكروث» حواريه وزقاقه

وكنائسه ، ومتعت نظرى بأفنيته الغناء « باسيو » ، وبالخضرة تتدلى من الطيقان وتغطى الحيطان ، وأصص الورد والريحان مرصوصة فوق الطنف ذات المشتبكات الحديدية كأنها سيقان الازاهير .

هكذا أتصور أحياء الاندلس عندما كان يسكنها المسلمون من البربر والعرب والصقالبة والموالى ثم اليهود والموريسكو .

ولكنها اليوم مساكن أقوام غير أولئك ، قد يكون من بينهم أحفاد مدجنين ومتنصرين . وما على من كل هذا الزيف التاريخى ، وقد عرفت فى فاس ومكناس وتلمسان ومراكش الاسلوب الاندلسى فى البناء ، وربما فى اللباس وقطعا فى الموسيقى والغناء ، وفى الدين واللغة .. عالما يتدفق حيوية ويزهو بجمال هو الصدق والاصالة .

فالسائح الباحث عن حضارة « المور » (المغاربة) فى الاندلس ، ينسى أن يضيف العيان الى الاثر ، الاثر فى الاندلس ، والعيان البيان فى المغرب الاقصى ، سهله وحزنه ، ما بين جبال الريف والاطلس ، وحينما عبرت من اسبانيا الى المغرب ، من الجزيرة (الخثيراس) الى سبته ، عرفت انى انهج بعض طريق المطرودين من جنة الاندلس ، لائذين ببنى عمومتهم ، ورأيت لاول مرة صخرة ابن زياد ، وجزت مجازه أو بوغازه ، وهو بحر الزقاق قبل أن يحمل اسم القائد المغربى الشهير .

حان أن ننتقل الى بر العدوة ، لنتابع رحلتى البرقية عبر الشمال الافريقى ، وتمثلا بالمذيع الذى يعد السامع الى حفلة « طرب » خارجية ، أستأذنه فى استعارة حماسه العجيب مناديا :

فالى هناك !

سندباد يبلغ المغرب الأقصى

شكا صديق قديم ، فى عرض حديث عن برامج التعليم بمدارسنا ، من ان ابنته تجهل كل شىء عن المغرب ادناه واوسطه وأقصاه ، وهذا على الرغم من دراستهم لما يعرف بالقومية العربية « من الخليج الى المحيط » . واذا كانت قد سمعت بفتوح العرب للمغرب والاندلس ، فقد توقف استيعابها عند اسمين او ثلاثة من ابطال الفتح العربى : عقبة بن نافع الفهرى، وموسى ابن نصير ، واضافت اليهما ـ باعتباره عربيا ـ طارقا ابن زياد ، وهو من سبى البربر ، ظفر به موسى فكان من مواليه .

سألها عن « الموحدين » فاجابت بأنهم : المؤمنون بالتوحيد ، فقال لها : وفسر الماء بعد الجهد بالماء ، واتبع بسؤاله : ومن هم « المرابطون » فلم تحر الفتاة جوابا .

قلت له : لو فاجأتنى بالسؤال عن الاخيرين ، قبل ظعنى الاول الى المغرب (١٩٥٨) ؛ لما وجدتنى أفصح من ابنتك ، ذلك لاننا فى مصر ، وفى الركن الشمالى الشرقى من افريقيا ، تقوم ثقافتنا الاسلامية فى معظمها على المشرق دون المغرب .

ولن احاول فى هذا المقال اقامة خلفية تاريخية

للمغرب ، فقد أقنعتنى قراءاتى المطولة نوعا فى تاريخ المغاربة ، قبل الفتح الاسلامى ، وبعده ، بأن تفاصيل هـذا التاريخ فى ذرواته الحضارية والحربية العظيمة، وفى وهاده ومنخفضاته ، معقدة تعقيدا لا سبيـل الى تبسيطه ، فكم من اسر وقبائل ، وأفخاذ من قبائل عربية يمانية ، شامية ، هلالية ، أو قبـائل بربرية صنهاجة ، وزناته ، وكتامة ، ومصمودة ، وبرغواطة ، ودكالة ، ونفوسة ، ولواته ، ومكناسة ، ومغراوة ، وبنى زيان ، وبنى مرين .. الخ .. الخ ..

وكم من حروب أهليـة ، وغزوات ، وفتـوح واختلال نورماندى من صقلية ، الى احتلال اسبانى ، وانتقال من الشمال الافريقى عبر بحر الزقاق الى شبه جزيرة أيبيريا ، مجاهدين ، فمستوطنين فمواطنين عادوا كلهم الى افريقيا على وجوههم وقـد اجـلاهم النصارى عن ملك دام سبعمائة عام .

وكم من أسر ملوكية ، وزعامات دينية ، تدوخ من يتابع تقلبـاتها على مدى القـرون ، وطول الشـمال الافريقى ، وعرضه : من مرابطين وموحدين ومرينيين وأغالبة وحفصيين ، وادارسـة ، وفاطمية ، وخوارج اباضية ، وعبد الواد .. ولن تسعفك الذاكرة ، وسوف يتلخبط كيانك بين ابى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن . وأبى يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف بن عبـد المؤمن ، وأبى يعقوب بن محمد الناصر بن أبى يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

يجب أن أهرب من كل هذا الحرج الذى اثاره عبورى من الاندلس الى المغرب اثارة فى غير مكانها ، فما أنا الا عابر سبيل ، تهمنى رؤية الغابة ، قبـل أن أتوه بين أشجارها ، أدون انطباعاتى الطائرة ، قبـل أن تضيع

من الذاكرة ؛ لانى اذا حاولت تلخيص هـذا التـاريخ المتشـابك المعقد ، ضاعت بهجته ، وانكسر وزنه وايقاعه الحى المتوثب ، وغدوت أشبه بالمؤرخ الذى حمل مؤلفه على ظهور الابل الى العاهل الآمر بكتابته ، وهذا يطالبه على مدى السـنين بايجاز بعد ايجاز ، حتى حضرت العاهل الوفاة ، فسأل مؤرخه تلخيصه الاخير ، أجابه : لقد ولدوا ، واشتد عودهم ، وجاهدوا ، وظفروا ، ثم اصابتهم الهزيمة ، وذهب ريحهم . رحمـة الله عليك وعليهم اجمعين .

أو كما قال يوليوس قيصر فى رسـالته الى مجلس شـيوخ روما : حضرت ، ونظرت ، وظفرت . فهل تغنى رسالته المقتضبة عن الاثر الادبى الفريد الذى تركه لنا ذلك القائد الرومانى الاعظم عن حروبه فى غاليا ؟

كان من حسن الطالع أن بدأت معرفتى بالمغرب الاقصى فى فاس ، أجمل مدنه ، واغنـاها حضـارة تالدة ، واحتفاء بالعلوم الدينية فى واحدة من أقدم جامعـات العالم ، وهى جامعة القرويين ، وما برحت تبرأسـنا للعلوم الاسلامية على المذهب المـالـكى .

فقد ركبت الطائرة ذات صباح من عام ١٩٥٨ ، مع وفد مصر الى مؤتمر اللجان القومية العربية لليونسكو ، دعت اليـه الحكومة الملـكية بالمغرب ، وكان الطـريق الايسر والاسرع فى ذلك الزمان من القاهرة الى باريس ، ومنها الى الرباط ففاس .

افتتحه وخطبه المغفور له الملك محمـد الخامـس ، ذلك الوطنى الـكبير الذى لاقى من الاستعمار الفرنـسى الضارى ضروبا من الاعنات والابعاد عن العرش والنفى ، فلم تلن له قناة ، وعاد الى سدة عرشه بقوة شعبه ، علمته وخاضته . جرى حفل الافتتاح فى قاعة الاحتفالات

بمدرسة مولاى أدريس ، وعلى قيد خطوات من جامعة القرويين ، وتحدث عن الوفود المرحوم الاستاذ محمد شبفيق غربال، مندوب الجامعة العربية ، وتراس المؤتمر صديقنا الكبير الاستاذ محمد الفاسى وزير التهذيب الوطنى والشبيبة والرياضة والفنون الجميلة حينذاك.

وانزلتنا الحكومة الشريفية أحسن منزل ، وافاضت علينا من كرمها وحبها ما لانوفيه بلسان ، فقد حرصت على أن تسير بنا فى معارج فاس القديمة ، وغيرها من بلاد المغرب ، نتلقى تحيات أهلها ، تزدحم بهم طرقاتها، وبطحاواتها ، ذات الجمال الساحر فى اصالتها ، ودعانا الاهل والصحاب المغاربة الى عقر دورهم ، وحسن ضيافتهم يسبغون علينا من فيض كرمهم ونبل خلقهم ، ما تدوم ذكراه على مدى الايام ، واستأذن هنا فى الانتفاع بما سجلته عقب عودتى الى مصر من انطباعات عن حفل موسيقى بمنزل السيد أحمد مكوار بساحة البطحاء .

ففى الصفحة الاولى من الكتيب الذى وزع علينا بعد العشاء ـ وفن الطهى المغربى شىء هائل يجل عن الوصف ـ جاءت هذه الكلمات :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. تفتح السهرة الموسيقية بكلمة صاحب المعالى الاستاذ السيد محمد الفاسى :

ا ـ جوق الاذاعة الوطنية المغربية برئاسة السيد احمد الوليلى .

ب ـ جوق المعهد الموسيقى بتطوان برئاسة النابغة السيد محمد التلمسانى .

ج ـ جوق المرحوم البريهى بفاس ، برئاسة العبقرى السيد عبد الكريم الرايس .

١ ـ « مشاليت » من طبع (اى مقام) « الحجاز الشرقى » .

٢ ـ « التواشى (كذا) السبع » من طبع « الحجاز الشرقى » » .

فضينا الليل حتى مطلع الفجر نستمع الى ما يقرب من الخمسين منشدا وعازفا يتداولون اداء الموشحات والازجال والدوبيت ، اداء المؤمنين بفنهم : الاحياء فى تاريخهم القريب والبعيد .

يا من له احسن الصفات
يا غصن آس ويا قمر
غبت عنا فلم يات منك آت
فاستوحش السمع والبصر
لولا الصبا من تلك الجهات
لذاب جسمى من الفكر
يا ايها الطالع السعيد
جاءت بأنبائك الرياح
ان الصبا عنك أخبرتنى
فاهتز روض المنى وفاح

ثم هذا الزجل :

وحسنك اشتهر فى غرناطة وحدك
يا زين الصفار
نعم فى السهر تسقى الملاح بيدك
كؤوس العقار
وحين تنفر الوتر يشرق حينا خدك
كشمس النهار
وخلى قريب ، وعيشى يطيب
ودع الرقيب ، فى قصده يخيب
عن بصرى يغيب

قوة الايحاء فى هذه الموسيقى ! شبابى يعود الى مزدانا بكل ما يضفيه عليه خيال السنين الغابرة ، لان هؤلاء المغنين والعازفين اكثر احساسا بما ينشدون ، ممن سمعتهم فى طفولتى ، أولئك كانوا يغنون كأنهم فى غفوة ، دون اقتناع ، وهؤلاء يعيشون تاريخهم الطويل ، فيذكرون انهم فتحوا الاندلس ، ثم خرجوا من الاندلس ، الى قطاعهم الجنوبى ، ولكنهم فى هجرتهم حملوا معهم دينهم ، ولغتهم ، وقوميتهم . . . وكنزهم الموسيقى الغالى : هذه التواشيح .

يعيش أهل المغرب الاقصى تاريخهم عندما يجتمعون ليغنوا اندلسياتهم الجميلة ، بمصاحبة الآلات التقليدية ، وغيرها ، فهم لايتزمتون للناى ولا للرباب ، ويضيفون الى التخت الاندلسى آلات البيانو والشللو والكلارينت والساكسفون ، ويستبدلون بالناى الفلوت ، وبالرباب الكمنجة ، وان كانوا يمسكونها واقفة كالرباب ..

وتعبيرهم الموسيقى خلو من التخنث والتكسر والطراوة ، يبعث فيك النشاط وحب الحياة ، بدل أن يحرضك على النعاس .. والهيام والاستسلام .

وطريقة غنائهم الجماعى فيها تلوين جميل ، فالاصوات لا تشترك جميعها طول الوقت : يسكت بعضها آنا فيهدأ النغم ، ويغنى الجميع آنا آخر فترتفع حرارة النغم ، واذا بصوت رجل واحد يعلو على الجميع فى طبقة نسائية اللون ، تعرف فى الغناء الاوربى بصوت الرجال « الفالستو » ، فتحس كأن الحان التوشيحة تعلوها ألسنة من اللهب ، هى الصورة الذهنية للوجد والصبابة ونار العشق .

وكذلك هم فى التوزيع بين الآلات ، دون أن يخرجوا

عن الاجماع الميلودى البحت .

كنت وأنا أستمع ، اطالع فى الوقت نفسه نقوش البهو الذى جلسنا فيه ، فتتحرك عيناى مع تلك الاقواس والمقرنصات والصفف ، وتنزلق فوق الزليخ الاخضر والازرق ، ثم تنتقل الى خوان الحلوى، وقماقم الطيب ، والاباريق الفضية التى يملأون لنا منها كئوس الشراب الطهور .

فأنا أملأ عينى وسمعى وقلبى بهذا الفن المغربى الاصيل ، يحتفظون به الى اليوم ، ويعيشون فيه ، ويبنون قصورهم الحديثة على اسلوبه ، فكأنك بين ظهرانيهم تحيا فى قصور اسبانيا ، وتصهر « غصن الاندلس الرطيب » ؛ ولا تراها مجرد متاحف ، كأنها الطلل البالى .

ليلتنا فى منزل السيد أحمد مكوار بفاس ، لم تكن من ليالى العصر الحاضر ، والموسيقى الاندلسية فتحت طاقات خيالى ، فاذا بى أستوحى منارتى «الكتبية» و « الخيرالدا » وقصر الحمراء وجامع قرطبة ، وبوابات طليطلة ؛ وبرج حسان ، بل أنا أعيش فى القصص الشعبية المصرية التى تحدثنا عن « تغريبة بنى هلال » و « خضرة الشريفة » و .. و .. « هلا هلا يا بدوى جاب اليسرى (الاسرى) » .

سرت مع موسى بن نصير الى مدينة النحاس ، بعد ان صحبنى عقبة بن نافع الى مدينة القيروان، ورافقت « المغررين » لاكتشاف بحر الظلمات ، حتى بلغنا الجزائر السعيدة «فرطناتس» ، والتى تحرف « ألف ليلة » اسمها من جزائر الخالدات الى جزائر خالدان ، حيث حكم الملك شهرمان ، أبو قمر الزمان .

وعندما : « طلع البدر علينا من ثنيات وداع » ،

ختمت الاصوات مجتمعة بشـدرات من درج « نوبة رمل الماية » :

الله عظم قـدر جاه محمـد
وأناله فضـلا لديه عظيـما
فى محكم التنزيل قال لخلقـه :
صلوا عليه وسـلموا تسـليما

والالحان الختامية هذه انشدت فى ايقاع دينى جليل، وكانت شطرة « صلوا عليه وسلموا تسليما » ، صلاة حارة تجيش بها نفوس محبة وامقة .

***

لم اكن رايت اندلس فى ذلك الوقت وان عرفتها فى الصور والكتب والسينما .

وأشـهد ان رحلتى الاخيرة (١٩٧١) من الاندلس الى الشمال الافريقى ، كانت بنت تلك الليلة الموسيقية فى بيت مغربى كريم .

ولذلك حرصت على زيارة صديقنا الكبير ، وزير الدولة ، الاستاذ محمد الفاسى ، فى مكتبه بوزارة الدولة المكلفة بالشئون الثقافية ، و « التعليم الاصلى » ، وكان محور حديثنا هو موسيقى «بلاد المغرب السعيدة» ونفحاتها الاندلسية .

جـادك الغيـث اذا الغيـث همى
يا زمان الوصـل بالاندلس

فذلكة المرابطين الملثمين

بنو الحرب غذتهم لبان لديهـا ... فلم يستطيبوا منه الا العلقمـا
يحثون للهيجاء جرداً سلاهبـا ... وينضون فى البيداء بذلا صلادما
اذا طعنوا بالسمهرية خلتهم ... ضراغم تغرى بالقلوب أراقمـا
وان كر منهم ذو لثـام مصمم ... غدا لقم الهيجاء بالسيف لاثما

« ابن حمديس الاندلسى »

قلت ان رحلتى عام ١٩٧١ من الاندلس الى الشمال الافريقى كانت بنت ليلة موسيقية فى بيت رجل كريم من فاس ، استمعنا فيهـا الى الموشحات الأندلسية المغربية أو ما يسميه الافرنج عادة بالفن «الموريسكى» ؛ نسبة الى « المور » ، وهم المغاربة .

وابديت الشك فى قدرتى على تلخيص تاريخ المغرب الكبير ، ثم عدت بعد الانتهاء من كتابة ذلك الفصل الوم نفسى على التخلف والنكوص ، بل الهروب السهل امام صعوبة يجب التغلب عليهـا ، لا سيما وانني لم اجب عن سؤال صديق لى القاه على ابنته التلميذة بالثانوية العامة ، فلم تتمكن من الاجابة ، كان السؤال : من هم المرابطون ؟

وهو سؤال لايكفى فيه مجرد التعريف بهم خارج الاحداث التى نشأوا فيها ، والبقاع التى خرجوا منها ليشيدوا امبراطورية اسلامية عظمى تبدأ من الجزائر

حتى بحر الظلمات ، ومن الاندلس حتى بلاد السنغال.

وفيما أنا احاسب نفسي على هروبي من تلخيص تاريخ طويل معقد ، اهتديت الى انني قد ايسر الامر لو ركزت على تاريخ المغرب الاقصى وحده ، فمصدر الصعوبة هو ان تاريخ المغرب الكبير متشعب متفكك ، يتناول تاريخ الشمال الافريقي في كل ما يلي مصر غربا ، بدءا ببرقة وطرابلس ؛ وانتهاء بمدينة اسفي على المحيط الاطلنطي غربا ؛ وأود هنا تذكير القارىء بأن الفتوح الاسلامية لبلاد المغرب استغرقت نحو سبعين سنة ، مع ان فتح العرب لمصر والشام والعراق وفارس تم في اقل من عشر سنوات .

وبين يدي دراسة تاريخية عمرانية اثرية عنوانها : « المغرب الكبير ـ العصر الاسلامي » تأليف الاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم (١٩٦٦) يحتويها مجلد ضخم يقع في نحو الف صفحة ، يصفه مؤلفه بانه « عرض سريع (كذا) لتاريخ المغرب في العصر الاسلامي، وخلاصة دراسة قمت بها في بلاد المغرب والاندلس» ، علما بأن هذه الدراسة تقف عند دولة « الموحدين » اي حوالي سنة ١٢٦٩ ميلادية .

سأقصر مقالي ، اذن ، على شطيرة من تاريخ المغرب الاقصى ، من بدء انتشار الاسلام في انحائه على يد اسرة الادارسة ، حتى عصر المرابطين ، فيما اسميه سخرية بنفسي : تلخيص التلخيص المختزل .

***

انفصل المغرب الاقصى عن الامبراطورية الاسلامية في الشرق ، وكان العباسيون قليلي الاحتفاء بتلك الاقطار النائية ، فأصبحت القيروان ، حاضرة افريقية (اي القطر التونسي حالا) ؛ وقرطبة حاضرة الاندلس ،

وسيرتفع منار جديد للحضارة فى وسط المغرب الاقصى ، ما فتىء مضيئا حتى اليوم بمدينة فاس ، انشأها عربى (ادريس بن عبد الله بن الحسن ، حفيد على بن ابى طالب) خرج على العباسيين مع العلويين بمكة والمدينة تحت زعامة ابن اخيه الحسين ، وتمكن بعد هزيمة العلويين على يد الخليفة الهادى ، من الهرب الى مصر ، ومنها رحل الى الشمال الافريقى ، حيث انتهى ضيفا عزيزا على قبيلة « الاوربية » بمدينة وليلى (فولوبليس الرومان) ، فولوه الامامة ، واخذ فى نشر الدعوة الاسلامية بين ظهرانيهم ، والقبائل البربرية الاخرى ، ويقول الرواة بأن هارون الرشيد انفذ اليه جاسوسا سفاحا فى صورة لاجىء نجح فى اجتذاب ثقة الامام الادريسى ، فدس له السم القاتل (٧٩٢ م) .

توفى مولاى ادريس دون ولد ، ولكنه ترك جارية من البربر حاملا فى شهرها السابع ، وقررت قبائل البربر ، ان وضعت غلاما ، كفلوه ثم بايعوه لخلافة ابيه ، ونشأ غلاما كثير الشبه بابيه فسمى باسمه .

وادريس الثانى هذا هو منشىء مدينة فاس، ولكن المؤرخين اختلفوا فيما اذا كان ادريس الاول قد شرع فى تأسيس المدينة ، ثم اكملها ابنه ، وقد اثبت المستشرق الفرنسى ليفى ـ بروفنسال تفاصيل هذا الانشاء مقاسمة بين الادريسين : الاول، والثانى ، وكانت المدينة تتألف من قسمين : أحدهما يعرف بعدوة الاندلسيين، اسكنهم ادريس الثانى عندما وفدوا عليه لاجئين من اضطهاد أمرائهم ، والآخر يعرف بعدوة القرويين ، وسور كل قسم بسور خاص ، يجرى بينهما وادى فاس ثم ضم القسمان واحيطا بسور واحد ، فكانت فاس

الزهراء التي احتفظت الى اليوم بطابعها التاريخي ، وسبقها الحضاري ، علما وفنا وأدبا وصناعة ، وان لم تقم دائما كعاصمة للمغرب الاقصى ، فبعض السلاطين اقاموا عاصمتهم بمكناس ، وانشأ المرابطون مدينة مراكش حاضرة لامبراطوريتهم ، وكذلك الموحدون .

واذا كانت مدينة الرباط اليوم هي عاصمة الحكومة الشريفية ، فما برحت فاس المدينة الفنية بآثارها وتحفها ، ومدارسها ، تضمها جامعة « القرويين » ، من أقدم جامعات العالم ، وبثروتها الزراعية في صقعها وفحصها .

انتهت دولة الادارسة عام ٩٢٠ م ، وتلاها في الحكم بعد فترة طويلة ، دولة المرابطين ، واذا كانت أسرة الادارسة عربية الارومة ، ترتد في اصولها الى العلويين ، فان أسرة المرابطين كانت من البربر الخلص ، خرجت من قبائل صنهاجة الجنوب ، الضاربة في الصحراء : وتولت لمتونه زعامة قبائل جدالة ومسوفه ، ثم انتقلت الرئاسة الى جدالة يتزعمها يحيى بن ابراهيم ، وكان رجلا شديد الاحساس بنقص التعاليم الدينية في الصنهاجة ، وحاجتهم الى من يتولى تثقيفهم ، وتهذيب طباعهم ، وكانت حجته الى مكة والمدينة فتحا مبينا لقبائل البربر ، فما أن عاد يحيى الى أهله حتى استدعى فقيها من سجلماسة بأقصى الجنوب ، من أرباب العلم والتقوى ، اسمه عبد الله بن ياسين ، ليؤدي رسالة الاسلام الصحيحة بين مسلمين على البداوة وخشونة الطبع .

وفي مضارب لمتونة بدأ عبد الله دروس الدعوة والارشاد الى اصول الدين الصحيحة ، وعنى فيما عني

بدعوتهم وارشـــادهم الى السلوك السليم ومحاسن الاخلاق .

ضاقت لمتونة ذرعا بهـذه التعاليم الصـارمة التى لا تتفق مع حياة أولئك البدو الملثمين، ومدارها الاعتداء والبغى ، وارتكاب المعاصى دون رادع من خلق أو دين، وما أن مات زعيمهم يحيى بن ابراهيم الجدالى ، ولم يتمكن خليفته يحيى بن عمر من كبح جماحهم ، حتى أخرجوا عنهم المرشد الامين ، فتبعه أميرهم يحيى بن عمر ، مصطحبا شقيقه أبا بكر بن عمر ، واتجهوا جنوبا نحو السنغال ، ومعهم سبعة رجال من جدالة ، ويرجح المؤرخون انهم اختلوا فوق ربوة محاطة بالماء ، انفردوا فى غياضها منقطعين للعبادة ، واسس عبـد الله هناك رباطا .

والرباط من المرابطة ، اى ملازمة مكان للجهاد حيث ترابط خيل المجاهدين ، من قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ، ومن قوله جل وعلا : « يا أيها الذين آمنوا اصـبروا وصـابروا ورابطوا واتقوا الله لعلـكم تفلحون » .

والرباط حصن منيع للتعبـد ، ومسلحة ، ومركز تدريب حربى عنيف للجهاد والغزو، ولايعرف المؤرخون على التحقيق موضـع هذا الرباط الاول لزعماء الصنهاجة ومبعث دولة المرابطين العظمى .

انضم الى الفئة القليلة من العباد المجاهدين ، كل من تاب عن مسلك الصنهاجة ، حتى بلغوا الالف عدا ، فقرر عبـد الله بن ياسين الخروج بهم لاخضـاع بربر الصحراء لصرامة الشريعة الغراء .

واصبح الالف راس الحربة لمجموعة مترابطة ، تألفت

من قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة ، واستولت على سلجماسة ، فواحات الجنوب الغربى فالسوس الاعلى والادنى .

كان جهادا شاقا مكللا بالظفر ، وان سقط فى ساحته القائد يحيى بن ابراهيم واخوه ابو بكر والراس المدبر لجمع شمل المرابطين : عبد الله بن ياسين .

وفى عام ١٠٦٠ م بلغ المرابطون سهول الاطلانطى بزعامة يوسف بن تاشفين الذى جمع فى شخصه بطولة الاميرين المحاربين ، وعقل المدبر : عبد الله بن ياسين .

تولى يوسف بن تاشفين الزعامة فى سن الخمسين ، وحكم دولة المرابطين خمسين عاما أخرى ، حكمها بصرامة المتدين القانت ، واتساع افق القائد وحيلته ، وقد راى أن يقيم مركزا لدعوته وقيادته عند اقدام جبال الاطلس فكانت مراكش ، انشأها سنة ١٠٦٢ م ، ومنها أخذ يستولى على المغرب الاقصى كله ، ومساحة واسعة من المغرب الاوسط (الجزائر) ، ولم يتخل عن تحركاته نحو السنغال جنوبا ، فلم يحل عام ١٠٨٦ حتى كانت دولة الملثمين قد امتدت من بعض الجزائر شرقا ، حتى المحيط الاطلسى غربا ، ومن السنغال جنوبا حتى بلاد الريف المطلة على بحر الزقاق شمالا .

وفى ذلك العام عبر يوسف بن تاشفين وجيشه الى عدوة الاندلس ، واحتل الجزيرة الخضراء لتموينه ، وضمانا لخط مواصلاته مع المغرب ، وكان الفونسو السادس ، رئيس الحلف القشتالى ، قد اقسم ليحشدن من الجنود بعدد شعر راسه ، حتى يبلغ بحر الزقاق ويزيح الاسلام عن شبه الجزيرة الايبرية قاطبة.

كان عبور ابن تاشفين ، زعيم المرابطين الملثمين ، و « أمير المسلمين » الى العدوة تلبية لاستنجاد المعتمد

ابن عباد صاحب أشبيلية ، وهنا نورد واقعة مؤثرة استشار فيها المعتمد ابنه الرشيد أبا الحسن عبد الله قائلا : « أنا فى هذه الاندلس غريب بين بحر مظلم ، وعدو مجرم ، وليس لنا ولى ولا ناصر الا الله تعالى . وان اخواننا وجيراننا ملوك الاندلس (أى الطوائف) ليس فيهم ولا يرجى منهم نصرة ولا حيلة ان نزل بنا مصاب ، أو نالنا عدو ، وهذا اللعين ادفنش (الفونسو) وقد أخذ طليطلة من ابن ذى النون بعد سبع سنين ، وعادت دار كفر ، وها هو قد رفع راسه الينا ، وان نزل علينا كما نزل بطليطلة ، فانه ما يرفع عنا حتى يأخذ اشبيلية ، ونرى من الرأى أن نبعث الى هذه الصحراء وملك العدوة نستدعيه للجواز ، ليدفع عنا هذا الكلب اللعين ، اذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا ، فقد تلف لحاؤنا ، وتدبرت بل وتبردت أجنادنا ، واجتبتنا العامة والخاصة » .

اجابه الرشيد : « يا ابت ، اندخل علينا فى اندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا » .

قال ابن عباد : « أى بنى ، والله لايسمع عنى أبدا انى اعدت الاندلس الى دار كفر ، ولا للنصارى لتقوم على اللعنة فى منابر الاسلام ، مثلما قامت على غيرى . وحرز الجمال عندى ، والله ، خير من حرز الخنازير »

وكان من أمر نجدة أكبر المسلمين ابن تاشفين لابن عباد ان تم للأندلسيين والملثمين المرابطين الانتصار الساحق الماحق على الادفنش وجيشه الجرار فى معركة كبرى تعرف « بالزلاقة . » .

واذا كانت المحنة تربط الناس برباط الاخوة فى السلاح ، فالنصر كثيرا ما يعيد الى النفوس توجسها وحزازاتها النائمة (راجع ختام الحرب العالمية الثانية

.. وما بعدها .) وقد حاول اهل الشر فى الفريقين المرابطين والاندلسيين ، الايقاع بين ابن تاشفين وابن عباد ، واستطاع الرجلان الكبيران ترك امر ذلك حتى يأتى الله امرا كان مفعولا .

وواقع الامر ان امير المرابطين كان قد أحس بما يملأ نفوس الطوائف من اثرة وحرص على ملكهم بأى ثمن، كما رأى فى ترفهم وترديهم فى الملذات الحسية وارتكاب المعاصى ما تمجه نفس البربرى المتقشف ابن الصحراء صادق العقيدة ، وأدرك ان من واجبه مستقبلا الضرب على أيدى أولئك الصغار المتناحرين على فتات ممالكهم. فعاد الى الاندلس المرة تلو المرة حتى انتهى الى الاستيلاء على ثغورها .

***

وأورث يوسف بن تاشفين ابنه دولة كبرى امتدت فى مطلع القرن الثانى عشر الميلادى من الجزائر حتى المحيط الاطلنطى ، ومن سرقسطة فى الاندلس وجزائر البليار شمالا حتى السنغال جنوبا .

خمسون عاما قضاها المرابط الاعظم فى جهاد وغزو وحرب وتدبير سياسة ، وتنظيم ملك واسع ، واقامة منشآت دينية ومدنية فى مراكش ، وفاس ومكناس وتلمسان ، وغيرها من بلاد المغرب الاقصى والاوسط .

ويطيب لى أن اختم هذه الفذلكة الجادة بدعابة قد تكون من آثار التندر على قصور فهم ابن تاشفين امير المسلمين البربرى للسان العربى :

فقد ذكر ابو اليد الشقندى فى رسالته عن فضائل الاندلس ، ان المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية كتب الى يوسف بن تاشفين ، بعد انصرافه الى حضرة ملكه ، رسالة تمثل فيها بشعر ابن زيدون :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
حالت لبعدكم أيامنا ففدت
سودا وكانت بكم بيضا لياليا

فلما قرىء هذان البيتان على كبير المرابطين ، قال : يطلب منا جوارى سودا وبيضا .

فأجاب القارىء : « لا يامولانا ، ما أراد الا ان ليله كان بقرب امير المسلمين نهارا ، لان ليالى السرور بيض، فعاد نهاره ليلا ، لان ليالى الحزن ليال سود » .

قال يوسف : والله ، منيح . اكتب له فى جوابه : ان دموعنا تجرى عليه ، ورءوسنا توجعنا بعده ..

عظيم عظماء صنهاجة
بين المغرب والأندلس

ختمت الفصل السابق بمداعبة رجل البربر العظيم و « أمير المسلمين » يوسف بن تاشفين ، مؤسس وحدة المغرب الاقصى ، تلك الوحدة التى صقلت شعبه ، وميزته بوضع خاص على بقية شعوب المغرب الاسلامى وفى هذا يقول المستعرب الفرنسى ، المؤرخ العلامة ليفى ـ بروفنسال :

« هناك حدود لم تتغير اطلاقا فى مجموعها ، تفصل المغرب الاقصى عن بقية شمال افريقيا منذ قرون عدة ، وليست هذه الحدود مجرد حاجز طبيعى ، أو سلسلة من الجبال ، أو مجرى مياه ، وانما هى ، شأنها فى ذلك شأن الحدود التى تقوم بين الدول ، سياسية بوجه خاص ، فهى تحدد على الاقل فى نطاقها الشمالى أقصى النقط التى بلغها التقدم التركى بالجزائر فى العصر الحديث .. وكذلك يوجد الى الشرق فيما بين المغرب الاقصى وبقية الشمال الافريقى ، فاصل طبيعى ، ومن المستطاع ادراك ما بين القطرين من فوارق فى الكيان الجغرافى والمناخ ، وبالتالى فى نوع الحياة التى يحياها السكان .

« أما الاختلافات الاجتماعية والسياسية ، فلا يمكن انكار وجودها رغم الوحدة الدينية فى المغرب كله ،

ولكن هـذه الاختلافات لم يبدأ ظهورها فى التاريخ الا منذ نهاية العصر الوسيط ، اى من اللحظة التى صارت فيها بلاد المغرب الاقصى الدولة الوحيـدة المستقلة فى شمالى افريقيا ، والدولة الوحيـده التى لم تقع تحت سلطان دوله اسلامية اخرى .. ففى ماضى بلاد المغرب الاسلامى ، تؤلف تلك البـلاد مجموعة منفردة بذاتها منذ اقدم عصور تاريخها .

« . . . كان يسيطر على تاريخ المغرب الاقصى دفع مزدوج من الفاتحين ومؤسسى الدول ، دفع المرابطين، ودفع الموحدين ، وقد كان لهذين اللفظين.. حق الذكر فى لسان اوربا منذ زمن بعيد . . اظهر امارة دالة على الدهشة التى اصابت امراء النصارى وملوكهم فى شبه الجزيرة الايبرية حيال ما لا سبيل الى صده من سطوة أولئك البربر الذين راحت جماعاتهم الواحـدة تلو الاخرى ، تنزل بهم الهزائم المدوية في أوربا ذاتها.. فالمرابطون والموحدون يدوى اسماهما كأنهما من اسماء الرعب فى مصنفات التاريخ اللاتينية التى تروى اخبار الاسترداد ..

« . . . فالمرابطون ، أولئك الملثمون ابناء الصحراء الذين لم يلبثوا أن تهذبت نفوسهم بحيث اضطلعوا بدور الملوك الصيد ، ثم لم يلبثوا أن تأثروا بالحضـــارة الاسبانية فى الاندلس ، ولم يكن هـذا شـأن الفارس البربرى العظيم يوسف بن تاشفين ، وانما كان شـأن ابنه على بن يوسف الذى استهل حكمه بحقبة طويلة من الرخاء والازدهار . . لقـد كان اسـم على بن يوسف ، منذ توليه امارة المسلمين (سنة ١١٠٦ م) ولم تتجاوز سنه الثالثة والعشرين ، يذكر على الفين وثلاثمائة منبر فى مساجد المغرب الاقصى والاندلس ،

وامتد سلطانه من بجاية (بالجزائر ، وكانت تسمى أيام الاستعمار الفرنسى : بوجى) الى السوس الاقصى ، ومن تافيللت الى السودان ، كما كان يخضع له جنوب شبه جزيرة ايبريا بأجمعه ، ويمتد حكم عماله الى جزر البليار ، وذلك كله بفضل جهاد أبيه يوسف بن تاشفين. وكانت دولة المرابطين فى أوجهـا ، والاسرة البربرية تزداد على مر الايام رقة وترفا بحيث صدق ما قيل فى هـذا العصر من ان الثقافة الاندلسية سادت فى المغرب الاقصى » .

ذكرت فى الفصل السابق كذلك كيف دخل يوسف ابن تاشفين بلاد الاندلس ، والظروف التى دعت أن يستنجد به المعتمد بن عباد ، صاحب اشبيلية ، وما انتهت اليه معركة « الزلاقة » (ساكر الياس ، عند مؤرخى الافرنج) من انتصار المرابطين الحاسم ، هم والاندلسيون ، على حشود الحلف القشتالى بقيادة الفونسو السادس . ولقد وصف صاحب « الحلل الموشية ، فى ذكر الاخبار المراكشية » يوم الزلاقة ، قائلا : «كان يوما لم يسمع بمثله منذ اليرموك والقادسية فيالله من فتح ، ما كان اعظمه ، ويوم كبير ، ما كان أكرمه ، فيوم الزلاقة ثبتت قدم الدين بعد زلاقتها ، وعادت ظلمة الحق الى اشراقها ، نفست مخنق الجزيرة بعض التنفس ، واعتزت بها رؤى الاندلس » ، وفى أول هذا القول مبالغة كاتب قاصر المعرفة بأيام الاسلام فى غير اليرموك والقادسية .

غادر ابن تاشفين الاندلس ، وقد وضع فيها ثلاثة آلاف مقاتل من الملثمين تحت تصرف ابن عباد ، صاحب اشبيلية ، ولم تفت هزيمة الفونسو السادس فى عضده ، فان حركة الاسترداد المسيحى تمثل المكابدة

والهزيمة والاصرار ، لا تفلها السنوات انتصارا أو هزيمة ، لقد قرر الاسبان طرد المسلمين من شبه الجزيرة مهما طال الزمن .

اتجه « الادفنش » الى شرقى شبه الجزيرة يغزو ثغورها ، وينشر الخراب فى ربوعها وحقولها . ولم يمض على هزيمته فى « الزلاقة » أكثر من عامين .

فقدم على كبير المرابطين بحاضرته مراكش وفد من تلك الثغور الشرقية ، من بلنسية ومرسية ولورقة المهددة بالغزو القشتالى ، يشكون اليه حال بلادهم ، وعبث « الروم » فيها ، كما قدم اليه ابن عباد ، فلم ير يوسف بن تاشفين مندوحة عن الاستجابة ، وعبر بحر الزقاق مرة ثانية عرف فيها حقيقة ملوك الطوائف ، وحزازتهم وفلاكتهم ، ولم يستنجد به ابن عباد لمحاربة القشتالية فحسب ، بل ليساعده على استرجاع ثغر مرسية الذى استولى عليه دعى من الادعياء اسمه ابن رشيق .

كانت خطة ابن تاشفين تسديد هجومه على حصن بشرقى الاندلس يحتله الاسبان ، ويهددون به الثغور الشرقية ، لم ينجح المسلمون فى استرداد الحصن ، مصدر الخطر الداهم على تلك الثغور .

لقد اخطأت حين زعمت فى الفصل السابق بأن المحنة تقرب بين الافئدة ، وكان أخلق بى أن أضيف : فى الظاهر ، ولا أثر لها على ما فى السرائر ، وكان فشل المسلمين أمام الحصن فاتحة مساجلات واتهامات وخلافات بين ملوك الطوائف ، يتراشقون بالعتاب والسباب فى حضرة ناصرهم « امير المسلمين » الملثم ، الذى امر برفع الحصار ، ثم قفل عائدا الى مراكش حيث تناهى اليه ان صاحب غرناطة توالس مع مندوب الادفنش

مقابل مبلغ من المال له صورة ، وان ابن رشيق ، مغتصب مرسيه من ابن عباد تعاون مع النصارى فى خلال حصار المسلمين للحصن المنيع .

وهنا قرر البطل البربرى العودة الى الاندلس للمرة الثالثة ، دون استدعاء أو استنجاد من أولئك الملوك الهلافيت ، وفى عزمه الاطاحة بهم ، وجمع كلمة شعب الاندلس وشعب المغرب تحت زعامته : عزل ونفى صاحب غرناطة وصاحب مالقة ، وأقام ابن عمه على راس مجموعة جيوش اربعة من المرابطين ، للقضاء على ملوك الطوائف قاطبة ، فحاصر اشبيلية وقبض على المعتمد بن عباد ونفاه الى المغرب ، واقتحم بطليوس واسقط صاحبها الذى قتل هو وابناه ، وفتح المرابطون قرطبة ، والمرية ، ومرسية ، ورندة .

قال يوسف تاشفين : « وانما كان غرضنا فى ملك هذه الجزيرة (الاندلس) أن نستنقذها من أيدى « الروم » ، لما راينا استيلاء هؤلاء على اكثرها ، وغفلة ملوك المسلمين ، واهمالهم للغزو ، وتواكلهم ، وتخاذلهم وايثارهم الراحة ، وانما هم واحدهم كأس يشربها ، وقينة تشنف أسماعه ، ولهو يقطع به أيامه ، ولئن عشت لاعيدن جميع البلاد الى المسلمين ، ولأملأنها على الروم خيلا ورجلا لا عهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برخاء العيش ، انما هم احدهم فرس يروضه ويستفرهه أو سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبى دعوته . . . »

وهكذا قضى المرابطون الاعوام التى قامت فيها مملكتهم فى جهاد ضد الحلف القشتالى ، استرجعوا به اكثر البلاد التى اخرج عنها المسلمون ، وخضع لهم جنوب شبه جزيرة ايبريا بأجمعه ، وجزائر البليار . عند تمام المائة الخامسة من الهجرة (١١٠٦ م)

توفى البطل الملثم الاعظم ، وخلفه على بن يوسف بن تاشفين ولم تكن مراكش عاصمة المرابطين حينذاك اكثر من رباط للمحاربين يقول فيها ابن خلدون : « وجعل يوسف مدينة مراكش لعسكره ، وتلتمرس بقبائل المصامدة المصيفة بمواطنهم بها فى جبل درن » ، وبنى بها مسجدا وقصبة (قلعة) .

وفى عصر ابنه على ، انفسحت رحاب المدينة بمبانيها حول قصبتها ، وكثر سكانها ، ولم يكن على ابن الصحراء القح مثل ابيه ، فقد ولد لام نصرانية من السبايا ، على شاطىء بحر الزقاق بمدينة سبته ، وتلقى ثقافة اندلسية ، ونشأ يحذو حذو خلفاء بنى امية العظام فى قرطبة ، وجاز الى اسبانيا بعد توليه بسنوات قليلة ، وتوفى الفونسو السادس بعد ذلك ، فتولى محاربة المسلمين الفونسو المحارب ملك اراجون (ارغون) وحليفه ملك قطالونية ، وانتصرت جيوش على بن يوسف فى معركة « اقليش » بقيادة اخيه تميم بن يوسف ، وكانت هزيمة منكرة ، لقى فيها حتفه الامير سانشو بن الفونسو السادس وزايدة المسلمة ، كنة المعتمد بن عباد ، كما قتل فيها عدد كبير من مقاتلة النصارى وكماتهم ، ومن بينهم سبعة اقيال يحملون لقب «قومس» (كونت) وعرفت المعركة بموقعة « القوامس السبعة» .

وقد افضى هذا النصر بعلى بن يوسف الى أن يجىء ليضطلع بأعباء الحرب على راس جيش عرمرم ، وهمه الاستيلاء على طليطلة ، فدمر ما حولها وحاصرها ولكنه ارتد عنها بعد شهر عندما فشل فى اقتحام اسوارها ، بينما وفق واحد من ذوى قرباه ، الامير سير بن ابى بكر فى حملة جردها على البرتغال تم فيها فتح مدائن شنترين وبطليوس وبورتو ولشبونة .

تتابعت حمـلات المرابطين فى حكم على بن يوسف ، ما بين توفيق وخذلان ، الا ان القوات المرابطة على حدود الشرك كفلت للأندلسيين أمنا لم يكونوا يعرفونه منـذ أمد بعيد ، ووجدت أسبانيا الاسلامية وقتئذ فى السلام متعة الحياة ، واحست بالرغبة فى التفوق أمام انظـار العالم الاسلامى .

واهمية حكم على بن يوسف ـ من الوجهة الحضارية ـ هى توطد الاسلوب الاندلسى فى حياة المغرب الاقصى فنا وعلما وأدبا ، وقد أم بلاط أمير المسلمين بمراكش جمع غفير من نخبة الاندلسيين ، مفكرين وعلماء وفنانين وأدباء .

الا ان النفوذ الـكبير الذى كان يتمتع به الفقهـاء والعلماء فى الاندلس ، ومشاركتهم فى شئون الحكم ، امتـد الى المغرب وعاصمة المرابطين ، وكان لهـا أثر رجعية بغيضة ، وضيق فى الافق الفكرى ، تعصبا ضد من لم يشاطر أولئك الفقهاء معتقداتهم .

ومن دراسة العلامة جولدتسيهر نعرف ان انتصـار المذهب المالـكى (السائد فى المغرب الى اليوم) تم عام ١٠٤٨ م ، وكانت وحدة المذهب قد أضفت على الفقهاء المغـاربة التوقف والجمود ، فعزفوا عن الرجوع الى « الاصول » يستنبطون منها الاحكام ، ويتخذونها مادة للدراسـة ، وقنعوا بكتب « الفروع » ، وهنـا يقول محيى الدين عبد الواحد المراكشى : « وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، وانساق القوم وراء التقليد ، وانصرفوا عن النظر والاجتهاد .

ولقد وقعت حادثة ذات خطر من الناحية الفكرية ، بسبب سيطرة الفقهاء القاصرين المتزمتين ، هى احراق

كتب أبى حامد الغزالى ، فقد كان الفيلسوف المسلم العظيم يسخب نزعات الفقهاء وحرصهم على الدنيا ، وطمعهم فى المناصب المرموقة ، والضغن الذى يحملونه للعلماء الزهاد ، ولم يكن العلم فى نظر الغزالى مهنة دنيوية تعود على صاحبها بالربح . وانما هو « عبادة القلب ، وصلاة السر ، وقربة الباطن الى الله تعالى» .

ففى عام ١١٠٩ م ، امر على بن يوسف « امير المسلمين » ، باملاء الفقهاء ، أن تحرق كتب الغزالى ، واحرقت نسخة مجلدة من « احياء العلوم » أمام الباب الغربى لجامع قرطبة ، فى جمع حضره الفقهاء ، وصدر « الظهير » الاميرى فى جميع أنحاء امبراطورية المرابطين باحراق كل ما يعثر عليه من مؤلفات الغزالى.

وكان هذا وغيره مما ينذر بخاتمة المرابطين وشيكا ، وصعود نجم « المهدى » ابن تومرت ، «فقيه السوس» و « داعية الموحدين » الاكبر ، وقيام دولتهم بزعامة عبد المؤمن بن على « سراج الموحدين » .

تحت شجرة الخروب

شخصية عجيبة تحمل اسم محمد بن عبد الله بن تومرت ، من قبيلة هرغة ، فخذ من أفخاذ المصمودية ، نشأ فى بلاد السوس الاقصى ، الى الجنوب الابعد من مراكش ، على سفح جبل انجليز .

« والسوس عرفت فى العالم الاسلامى كبلاد للسحرة والمشعوذين ، كما يعتبر اهل الجنوب بالمغرب الاقصى اساتذة فى علم العرافة والتنجيم والقوى الخفية ، يأمرون الجن ويكشفون عن الكنوز المخبوءة وراء الارصاد .. وهم الى ذلك قوم أولو فصاحة بسيطة تأخذ بمجامع الافئدة ، يخاطبون جمهور السذج الطلعة ، وجلهم يجيد لغتين ، يضمنون خطبهم ـ بالعربية أو بالبربرية ـ آيات من كتاب الله ، أو عبارات دينية تضفى على أعمالهم التى ينكرها الاسلام أحيانا صبغة من التمسك السطحى بالدين . . .

« وبربر المغرب فى جملتهم اهل صلاح وتقوى ، الا ان الاسلام يقتصر عندهم على جانبه الدينى فقط ، والدين مكرم فى المدينة ، لكنه لا يتدخل فى حياتها الخاصة ونظمها وميولها ، والمثل الاعلى الغامض الذى تحاول أن تترسمه » (العلامة بروفنسال) .

ومحمد ليس اسمه أصلا ، ولا عبد الله اسم أبيه ،

انما استعار الاسمين تيمنا وتبركا ، بعد تبحره فى العلوم الاسلامية ، وقد نزح الى الشرق طلابا للمعرفة العليا ، وتعمقا واعيا للأصول .

فهو بربرى قح ، وكان ابوه تومرت رأس قبيلته او « امغارها » باللسان البربرى، واسم جده لابيه وجليد، وجده لامه وأبوركن .

بدأ رحلتـه الشرقية يافعا فى مطالع القرن السادس الهجرى (١١١٠ م) ، وانتهى الى بغداد حيث قرأ على علمائها شيئا من أصول الدين ، وسمع الحديث على اقطاب المحدثين ، ثم انتقل من بلاد الرافدين الى الشام والمظنون انه اجتمع هنـاك بأبى حامد الغزالى ، وان صاحب « احياء العلوم » حين سمع منه بما جرى على كتبه من مصادرة واحراق ، باشارة الفقهاء على « أمير المسلمين » فى دولة المرابطين القائمة فى ذلك الوقت ، علق على الخبر بقول غير مثبوت : « ليذهبن عن قليـل ملـكهم (أى المرابطين) ، وليقتلن ولد على بن يوسف ابن تاشفين » .

وجاز محمد بن تومرت بمصر فى حكم الفاطمى، الآمر بأحكام الله ، وكانت الاسكندرية وقتذاك عامرة بالعلماء، مواطنين ومستوطنين ، من أمثال ابن ميسر ، والفقيه عبد الرحمن العلاف ، وأبى بكر الطرطوشى ، وكان ابن تومرت يختلف الى مجلسه بخاصة .

قضى الطالب المغربى المجد نحو عشر سنوات فى رحلته العلمية بالمشرق ، وقد أفعمت روحه ايمانا ، وعقـله فهما موسعا لدينه ، ثم قفل عائدا الى وطنه على مراحل فكان فى كل مدينة يحل بها ، وعلى ظهر السفينة التى خطفت به الى المغرب ، لا يفتر لسانه عن وعظ الناس فى عنف الشاب المتدروش، حتى قيل بأن ركاب السفينة

تبرموا بلجاجته فرموا به فى البحر ، حيث « أقام أكثر من نصف يوم يجرى فى ماء السفينة لم يصبه شىء ، فلما رأوا ذلك أنزلوا اليه من أخذه من البحر ، وعظم فى صدورهم ، ولم يزالوا مكرمين له الى أن نزل من بلاد المغرب الاوسط بمدينة بجاية »، (بوجى بالجزائر، كما كانت تسمى أيام الاحتلال الفرنسى) .

وما لبث فى بجاية هنيهة حتى نهى الناس عن « الاقراق (النعال) الزرارية ، وعمائم الجاهلية ، ولباس الفتوحيات للرجال والنساء » ، وفى عيد الفطر خرج الناس ، رجالا ونساء يرفلون فى حلل العيد ، فأقبل ابن تومرت بدير الضرب بهراوته فى ميسرتهم وميمنتهم.

وخرج أو أخرج الى ارباض بجاية ، حيث عاش فى زاوية يقضى النهار قارئا ، وشارحا ومعلما ، وفى المساء حين ينفض عنه الطلاب ، ينطلق من خلوته ، ويمضى الى مفترق من الطرق قريب ، يجلس تحت شجرة خروب يردد ابتهالاته ، ويستغرق فى تأملاته وتهجداته.

ولقد سمعه بعض اتباعه ، ورفقاء رحلته ـ وهم على وجه الدقة : الحاج يوسف الدوكالى ، والحاج عبد الرحمن ، وثالثهم أبو بكر الصنهاجى وكنيته البيدق، وكان مسجل أخبار الرحلة ، المتخيل خوارقها وكراماتها ـ سمعوه يقول : « الحمد لله الذى أنجز وعده ، ونصر عبده ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، يصلكم غدا طالب ، طوبى لمن عرفه ، وويل لمن أنكره » .

وصل هذا الطالب من المغرب ، وكان متوجها الى المشرق ، مصدر النور والعرفان ، ولما عرف بأمر مواطنه الفقيه محمد بن تومرت ، قصده واستأذن فى الدخول عليه بالمسجد :

ـ ادخل يا شاب (دخل وتهيأ للجلوس بين الناس)

ـ ادن منى يا شاب (بلغ حضرته)
ـ ما اسمك يافتى ؟
ـ عبد المؤمن بن على
ـ وأين تريد يافتى ؟
ـ المشرق ياسيدى ، التمس منه العلم .
قال ابن تومرت : العلم الذى تريد اقتباسه بالمشرق، وجدته بالمغرب يافتى .

بقى الشاب الى جانب أستاذه ، فلما جن الليل ، سمعه يقول : « لا يقوم الامر الذى فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن بن على ، سراج الموحدين ! » .

بكى عبد المؤمن وقال : « يا فقيه ، ما كنت من شىء من هذا ، انما انا رجل أريد ما يطهرنى من ذنوبى » .

قال ابن تومرت : « تطهرك صلاح الدنيا على يديك ، وطوبى لاقوام كنت أنت مقدمهم ، وويل لقوم خالفوك ، أولهم وآخرهم ، أكثر من ذكر الله يبارك لك فى عمرك، ويهديك مما تخاف وتحذر » .

وهكذا لازم الفتى أستاذه على راس طلابه واتباعه ، وسافروا من بجاية الى تلمسان ، فوجدة (آخر مدينة مغربية على الحدود الحالية بين المغرب الاقصى والجزائر) ، ومنها الى فاس حيث استقروا بواحد من مساجدها ، يقرأون على أستاذهم ، وينضم اليهم المريدون .

وكلما خلا ابن تومرت من الدرس ، خرج الى المدينة يسعى داعيا الى الفضائل ، والتمسك بأهداب الدين ، ونبذ البدع . ومن أخباره بفاس أن هاجم حوانيت آلات الطرب من « دفوف وقراقر ومزامير وعيدان وروط (نوع من الرباب) ، وأرببة (جمع رباب) وكيتارات ، وتولى هو واتباعه تحطيمها » .

وكان مآلهم هنا ، مآلهم من قبل ومن بعد : الاخراج من المدينة .

واصلوا طريقهم الى مراكش عاصمة المرابطين الزاهرة ، ونزلوا بمسجدها ، وروى ابن الاثير المؤرخ : ان ابن تومرت رأى ذات يوم أخت واحد من أمراء المرابطين فى موكب من الجوارى الحسان عدة كثيرة ، وهن مسفرات كعادة صنهاجة ، تسفر نساؤهم ، ويلتثم الرجال ، فأمرهن بستر وجوههن ، وانهال مع اصحابه ضربا فى دوابهن ، ووقعت الامرة عن دابتها .

وايا كان حظ الحادث من الصدق ـ ولقد اذكر ان ابن بطوطة المغربى الطنجى ، فى ذيبة المهل (حاضرة جزائر المحلديب ببحر الهند) ، وكان قاضيها ، أمر النسوة بستر أجسادهن العارية من الراس حتى السرة ، فرفضن ، واكتفى بأن يشترط دخول المتقاضيات الى ساحة العدالة محجبات بالحجاب الشرعى ـ فقد أبعد الفقيه الدرويش ومريدوه عن مراكش .

ونزح الجمع المشاغب الى الجنوب حتى بلغوا هرغة ، مسقط راس أستاذهم فى مضارب المصمودية بالسوس الاعلى ، حيث أقام الفقيه بين أهله وعشيرته يعظ ويتعبد ، ويستقبل وفود القبائل التى عرفت بأمره ، وقد سبقته اليهم شهرته .

تلك كانت نشأة الموحدين ، حسبما جاء فى مذكرات أبى بكر الصنهاجى المكنى بالبيدق ، ممن صحب « المهدى » فى رحلته من المشرق الى المغرب .

ولا يفهم اصطلاح «الموحدين» على مجرد كلمة التوحيد ، وانما كان شعارا للحركة التى اثارها ابن تومرت تقويما لقصور المرابطين فى فهم دينهم ، وحرص فقهائهم المالكية على التمسك بالفروع دون الاصول ، وقد

أخذوا فى تفسير صفات الله أتجاها ماديا ، حتى فشت بين اهل المغرب فى عصر المرابطين بدعه « التجسيم » ، واعاد ابن تومرت الحق الى نصابه فى أن صفاته تعالى من ذاته ، وان شريعه الاسلام تقوم على دراسة القران والحديث أصولا ، لا على تعاليم فقهاء يعتمدون على القياس والاجماع فحسب .

غادر ابن تومرت وأبناؤه المقربون مضارب هرغة وتوغل فى مرتفعات السوس حتى محلة « نين ملل » (اى البئر البيضاء) حيث بايعه من اتبع هداه تحت شجرة خروب سنة ٥١٥ من الهجره ، وكان اول من بايعه تلميذه الاثير عبد المؤمن بن على — ولقب فقيه السوس بلقب « المهدى المعصوم » .

كانت دعوة « المهدى المعصوم » ، قد أخذت فى الانتشار من «نين ملل» ، (تينمل فى اللغات الاجنبية) الى سائر بلاد المغرب الاقصى ، وتحولت الى ثورة على دولة المرابطين وقد آذن نجمها بالافول .

وجهز المهدى ابن تومرت جيشا من الموحدين لفتح مراكش ، وخطب فيهم قائلا :

« اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين ، وادعوهم الى اماتة المنكر ، واحياء المعروف ، وازالة البدع ، والاقرار بالمهدى المعصوم ، فان اجابوكم فهم اخوانكم ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، وان لم يفعلوا قاتلوهم ، وقد أتاحت لكم السنة قتالهم » .

ونصب على الجيش تلميذه وخليفته عبد المؤمن قائلا : « انتم المؤمنون ، وهذا اميركم » ولقب عبد المؤمن وخلفاؤه من بعده بأمراء المؤمنين .

كان عبد المؤمن ابن فلاح متوسط الحال من قبيلة بربرية الاصل تعربت منذ الفتح الاسلامى ، وقد تخلت

فى عهد ابن تومرت عن التمسك بلغتها البربرية ، ولتميز وحدها من بين الجماعات المذكورة فى كتاب الانساب بأن الاسماء العربية لبطونها لا تقترن بما يقابلها فى الاسماء البربرية على ما يقول العلامة المستعرب بروفنسال .

كان أبو عبد المؤمن عليا بن علوى بن يعلى ، وزوجته كانت تعلو بنت عطية بن الخير ، وعبد المؤمن هو ثالث أبناء على بن علوى من السيدة تعلو ، نشأ على الحفظ والقراءة ، وطلب العلم بتلمسان ، ثم عول على الذهاب الى المشرق ، عندما تبين له ان التعليم فى المغرب لايشفى له غليلا ، ورأى عمه أن يرافقه فقصدا بجاية ليركبا منها أول سفينة تبحر شرقا ، ثم حدث ما سبقت الاشارة اليه من لقائه بفقيه السوس ، ابن تومرت « المهدى المعصوم » .

« ويمكن أن نتمثل هذا الشاب المجد ، ولا شك انه كان فيما يظهر لمن يراه ميسور الحال ، قرويا عليه مسحة من التمدن أشبه بأمثاله ممن تكتظ بهم لوقتنا الحاضر زنقات (أزقة) الاحياء القديمة بمدينة فاس ، اجتمع له التواضع والحياء اللذان يتسم بهما من كان فى سنه ، نفس يقظة طلعة ، متعطشة للمعرفة ، يقوم عمه منه مقام المرشد ، وهكذا انطلق عبد المؤمن فى الطريق الذى رسمه له القدر .

« كان قدرا عظيما أن يبدأ تحت قيادة روحية لشخصية ابن تومرت التى تستهوى من حولها الى أقصى حد ، ونفس تجمع بين البساطة والتعقيد ، ونزعة حالمة ، شخصية المصلح الدينى ، الا انه سياسى بلغ الغاية فى الالمعية والاخلاص ، يؤمن برسالته ايمانا يفضى به الى الرغبة فى تحقيقها بقوة عارمة .. ومجمل القول أن ابن تومرت كان شعلة ذكاء .. مع صفاء فى النفس

لا يخلو من الليـــاقة الحضرية والرقة فيمن حوله ، والخشونة والقسوة مع تقدير العواقب ، لين العريكة فى الوقت المناسب ، لقد استطاع هذا البربرى القادم من الاطلس والعالم المسلم أن يصبح لدى مواطنيه شيخ القبيلة (الامغار) ، مسموع الـكلمة يتخلى فى خطبه عن أسلوب الاحتجاج ولو لحظة ليتحدث فى بساطة دون التشدق بالفصاحة على طريقة القوم ، وله فى الرسـول أسوة حسنة . . . لم يكن فيه شيء من سجايا العربى الساكن فى شبه الجزيرة ، وكان يعلم انه مهما فعل فان اللغة التى يكتبها لغة غريبة عليه ، ومهما كان من بلاغة رسائله فانه كان يفكر بالبربرية وبلسـان البربر كان يخاطب قومه أبناء « تين ملل » ، أما العربية فكانت لغة المواعظ والخطب التى تزيد أتباعه الجدد ايمانا ، يؤثر فى نفوسهم ايقاع العبارات الجميلة التي تتردد فى آذانهم رنينا عذبا ، دون أن يحيطوا بها احاطة تامة ، اذ كانت البربرية ، لسانهم ، لغة الشجب واللعن ، ولغة الدعاة الذين يعلنون مقدم « المهدى المعصوم » من قرية الى قرية ، ومن واد الى واد .

« الاسلام فى المغرب والاندلس ـ ليفى بروفنسال »

وكان الجيش المؤلف من أربعين ألف مقاتل ، المعقود لواؤه لعبد المؤمن ، خليفة « المهدى » تحت أسـوار مراكش ... « كناطح صخرة يوما ليوهنها ، فلم ... الخ » ، وانتهت الحملة بهزيمة قتـل فيهـا الـكثير ، وأصيب « أمير المؤمنين » القائد بجرح عميق فى فخذه الايمن تخلف عنه عرج ، فلما وصـل الخبر الى ابن تومرت ، قال : « أليس قد نجا عبد المؤمن ؟ » قالوا : نعم .. قال : لم يفقد أحد» .. وهذه فى الحق مكابرة من داعية الموحدين الاعظم ، أخفى بها الجرح النفسى

العميق ، فقد مرض بعد شهور من هزيمة جيشه ، وتوفى بداره فى « تين ملل » ، ودفن بأرض المسجد الملاصق للدار ، واخفى الاتباع موته ، ليواصلوا غاراتهم على المرابطين ، ثم اعلنوا وفاته بعد انقضاء ثلاث سنوات وبايعوا عبد المؤمن بن على ، اول خليفة فى اسرة الموحدين الحاكمة ، التى انتهت بالقضاء على دولة المرابطين ، وبامتداد ملكها الواسع على المغرب الكبير قاطبة ، من برقة حتى المحيط الاطلسى ، ومن بلاد السودان جنوبا حتى شمال الاندلس ، ودام ملكهم قرنا ونصف قرن ، أشاعوا الرهبة فى قلوب أعدائهم ، وعقد النصر لالويتهم فى اكثر من موقعة وموقع .

ثم حل قضاؤهم المحتوم ـ قضاء الدول طرا ـ ونذير انهيار دولتهم بعد موقعة رهيبة بينهم وبين نصارى الاندلس ، تعرف بمعركة « العقاب » ، وسيخلفهم على المغرب الاقصى بنو مرين ، فالسعديون ، واخيرا العلويون ، وهذه هى الاسرة القائمة حالا ، والتى تحكم ما كان يعرف فى شبابى ببلاد مراكش ، منذ ثلاثمائة عام .

كانت موقعة « العقاب » بفحص « طولوصا » حدثا خطيرا فى تاريخ الاسلام بالاندلس ، نشأت على اثر حلف صليبى أقامه اسقف طليطلة رودريجو خيمينث من الامارات والممالك الاسبانية والبرتغالية ، ودعا اليه اقيال فرنسا وايطاليا لينضموا الى اخوانهم فى الدين بشبه جزيرة ايبريا (١٢٠٦ م) ، وكان بابا روما انوتشنتى الثالث المحرض الاكبر على توحيد كلمة الكاثوليكية ضد الاسلام ، بارك عدة كثيرة ممن وفدوا على اسبانيا من ايطاليا وفرنسا والبرتغال وقطالونيا .

اجتمعت فى طليطلة عاصمة قشتالة حشود هائلة من

محاربى تلك البلاد ، ومن فرسان الصليب « الاسبتارية والداوية » ، وغيرهم وغيرهم وزحفت تلك الجموع والجحافل من طليطلة فى ٢٠ يونية عام ١٢١٢ .

وخرج أبو عبد الله محمد الناصر بن أبى يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، من اشبيلية فى العام نفسه على رأس جيش موزع الفكر ، مفكك العزيمة والعرى ، بلغ قرطبة ومنها الى جيان .

وزحفت القوات الصليبية جنوبا حتى بلغت واديا قريبا من بلدة طولوصا ، يعرف باسم « لاس نافاس دى طولوصا » ، (أى فحص طولوصا) ، واسمه فى المدونات العربية « العقاب » (الطائر) نسبة الى حصن اموى قائم بالفحص الذى دارت فيه المعركة .

انهزم المسلمون هزيمة نكراء ، وعاد محمد الناصر لدين الله ، « أمير المؤمنين » الموحدين الى اشبيلية ، ومنها الى المغرب ، واحتجب فى قصره بمراكش ، كسير الفؤاد ، حتى قضى بعد سبعة أشهر من اندحار جيوشه .

وكان ابنه المستنصر بالله ابو يعقوب أول خلفاء الموحدين الضعفاء ، بويع بالخلافة فى السادسة عشرة من عمره ، ونشبت الفتنة فى كل مكان ، وبعد وفاته تفرق أمر الموحدين الى اكثر من خليفة ينازع « أمير المؤمنين » ، وكان آخرهم من بويع بالاندلس ، ومزاحمه الذى بويع فى المغرب ، وتحول المغرب مسرحا للقتال بين خلفاء الموحدين ، وعادت أرض الاندلس الى اسوأ مما كانت أيام ملوك الطوائف .

وتأبين الدول الزائلة لا يتأتى الا أن يعرف المرء بآثار العمران التى خلفها امراؤها وملوكها .

نظرة .. فابتسامة .. فسلام .. فلقاء

عشقت المغرب الاقصى من أول نظرة ، عند أول لقاء (١٩٥٨) ، واعجبت بأعلام الفكر المغربى فى اجتماعاتنا بمؤتمر اللجان القومية لليونسكو بمدينة فاس ، ثم فى اللقاء الثقافى بمناسبة المهرجان الافريقى بالجزائر (١٩٦٩) وأخيرا بجامعة لوفان (بلجيكا) ، الجامعة الكاثوليكية العريقة التى استضافت مجموعة مختارة من الشرق العربى والمغرب ، ليحاضروا طلبة الدراسات العربية بتلك الجامعة ، ويناقشوا موضوع الساعة وهو « نهضة العالم العربى » (١٩٧٠)

وكانت رحلتى عام ١٩٧١ من الاندلس الى المغرب توكيدا للألفة الحارة التى أشعر بها نحو تلك البلاد البعيدة وقد بهرتنى بتكوينها الجغرافى وجوها وتاريخها العجيب ، وآثارها ، وألوان سهولها ووديانها وجبالها ، وسواحلها الطويلة على الاقيانوس الاطلسى ، والبحر الابيض المتوسط ، كما كانت تعلقا بشعبها الذى اجتمعت فيه خصائص تاريخه ، وصلاته الاندلسية ، والاجناس التى يتألف منها بيضا وسمرا ، بربرا وعربا ، ثم اثر قربه من أوربا فى تهيئته للحضارة الشاملة مع احتفاظه بشخصيته التى تفرض عليه التؤدة فى تطوره .

اننا فى مصر ، بقوامها الجغرافى المتناسق السهل ،

وبالعوامل الاخرى التي جعلت منا شعبا واحدا موحدا ، منذ فجر التاريخ ، ليصعب علينا ان نفهم معنى تماسك بلاد كالمغرب الاقصى لا تساعد تضاريسها ، ولا قبائلها وبطونها على هذا التماسك ، فمن سكان الجبال ، في بلاد الريف الى الشمال بمحاذاة شاطىء البحر الابيض، الى قبائل جبال الاطلس التي تمتد من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي : فتقسم المغرب الى شطر شرقي ينبسط سهولا وسباسب ودهاسا ، وشطر اوسط خصب ما بين وادي الملوية ووادي السبو ، وشطر الى الجنوب من جبال الاطلس ، بواحاته وسط امتداد الصحراء الافريقية الكبرى ، ويتصل بالسنغال وضفاف نهر النيجر .

بلاد الخصب والمحل ، والجفاف والمطر ، وجليد الجبال الشماء وثلوجها ، ومجاري مياهها ـ ويعرفونها بالاودية كما كانت تسمى بالاندلس ـ تنحدر الى البحر المتوسط شمالا ، والى الاطلنطي غربا ، ومنها ما لايعرف له مصب ، اذ تغيب مياهها في غرود الجنوب الصحراوي وسباسبه .

بلاد الربيع المزهر ، والخريف المثمر بالفواكه ، منبت أشجار الصنوبر والسنديان والارز والدلب على سفوح الجبال ، وشجيرات العشب العابس قرب القمم ، والشطئان الرملية والصخرية الى مئات الاميال ، والامواج القصيرة ذات أعراف الزبد شمالا . والعاتية العالية تحركها رياح بحر الظلمات . شعب مختلط ، وان تميزت أجناسه ، والمؤكد ان الجنس الغالب ـ البربر ـ استعمر المغرب من اقدم الازمنة ، ولا يعرف العلم عن منبته سوى القليل الذي لا يشفي غليلا . . ومن يدري ، لعل كلمة السر في أصل شعوب الشمال

الافريقى تقبع فى كلمة « ليبيا » ، حتى أن مصر ذاتها ترتد فى بعض أرومتها الى جنس ليبى عاش فيما قبل التاريخ يمرح فى الاحراج الواسعة أيام كانت الغزلان والسباع والتياتل والزراف تهيم وسط المراعى الخضراء قبل أن يتحول الجو ، ويتوقف الغيث ، وتمحل الارض ، ويأتى الماعز على كل نبت ، ويستوى جريان النيل فى واديه ، وبين شريطيه الاخضرين .

سكن الفينيقيون شواطىء الشمال الافريقى ، وأخلافهم القرطاجيون ، واحتلها الرومان دون التوغل بعيدا ، او التصعيد فى الجبال ، وكل ذلك لم يكن فى تاريخ المغرب الاقصى شيئا مذكورا الا قليلا ، لم يترك من الآثار الا نزرا يسيرا ، اهمها ما نرى من بقايا « فولوبيليس » الرومانية ، وهى « وليلى » اليوم الى الشمال من مكناسة ، والغرب من فاس .

أما الاسلام فقد طبعها بطابعه ، ونبت غرسه فى اراضيها : وأينع فى السهل والحزن ، فى الوهاد والجبال لم يكن ذلك ميسرا فى مطالع الفتح ، على الرغم من اقتحام عقبة بن نافع الفهرى للشمال الافريقى كله حتى بلغ شواطىء بحر الظلمات . وانا لنتصوره ، على ماجاءت به أخبار الاولين ، وقد لكز فرسه يدفعه الى خوض ماء الاقيانوس حتى بلغ الماء ركبتى القائد العربى ، ثم رفع ناظرته الى أعلى يشهد ربه على البر بقسمه أن يحمل راية الاسلام حتى مغرب الشمس ، بكل ما وهبه سبحانه من قوة على الفتح والجهاد فى سبيل الله ، وبث فى قلبه من الايمان بالشهادة .

ويبدو ان البربر وقد استمعوا الى كلمة الاسلام من القائد العربى وصحبه ، لم يحفظوا عهده ، ولا استنارت بصائرهم بالنور الجديد ، فارتدوا الى بداوتهم وعقائدهم

« الانيمية » ، بعد رحيل عقبة عنهم فى القرن السابع (٦٨٣ م) .

انما القرن الثامن هو عصر الاسلام الظافر على طول المغرب الكبير قاطبة حين اجتاحه موسى بن نصير ، واستولى على المغرب الاقصى من طنجة فى الشمال الى تافيلالت فى الجنوب ، ثم أقام مولاه البربرى طارق بن زياد حاكما على طنجة ، وقائدا على جيش من البربر عبر بحر الزقاق الى اسبانيا ، وشتت جحافل القوط ، وحقق أول فتوح الاسلام فى الاندلس .

وكان لادريس بن على ، وابنه ادريس الثانى الايادى البيضاء على تثبيت قواعد الدين الحنيف فى المغرب الاقصى ، وعلى انشاء حاضرته الاولى فاس ، وما برحت عاصمته العلمية والدينية والادبية .

ولاذكرن فى رحلتى الاخيرة زيارة مسجد ادريس بن ادريس بفاس ، وبلوغى باب مقامه امتلأ بالمريدين قعودا يتلون آيات الذكر الحكيم جماعة ، لم اجتز عتبة المقام فليس فيه مكان لقدم ، وقفت ببابه اقرىء صاحبه السلام وأتلو فاتحة الكتاب .

ووقوفى بمعارج الجبل ، فى الطريق من مكناسة الى وليلى لمشاهدة آثار « فولوبيليس » الرومانية ، أرفع البصر الى مدينة المغرب المقدسة ، واسمها من اسم وليها المدفون فى ارضها : مولاى ادريس ، صاعدة فى الجو ، شامخة تتبوأ كتف الجبل ، كأنها أوكار النسور

وكيف لا يكون عشقا أن أعكف منذ عودتى على دراسة حياة تلك البلاد فى ماضيها وحاضرها ، لا مجرد استزادة من معارف ، بل لاطيل أيامى فى « المملكة السعيدة » باستيحاء رحلتى القصيرتين اليها .

جلست وحدى على المقهى الكبير فى مواجهة دار

البريد بالرباط ، ساعة وبعض ساعة ، لا أمل النظر فى تلك العصرية الى السائرين زرافات ووحدانا ، رجالا ونساء ، من كل سن ، مع غلبة الشباب على الشيوخ ـ على عكس ما أحزننى بالجزائر هبوط النسبة عن هذا المستوى ، فكرتنى بأكرم الضحايا الذين سقطوا شهداء وأبطالا فى حرب التحرير الطويلة ـ وانها لعادة قديمة الفتها فى كثير من البلاد التى زرتها ، أن أطالع فى الزى والسيماء ، وفى ايقاع الحركة والسير ، صورة الحياة القائمة ، أستشف من ورائها قدرا ثمينا من روح البلد الذى أجهل ، وما بلغته من أدوار التطور .

وفى الرباط عاصمة المملكة المغربية الشريفة ، كنت أشهد هذه الاطوار وكأنها « فلاش باك » لما عرفته منذ الحلم ، وسايرته فى تطور مصر ، من الحبرة والبرقع والملاية اللف ، والعربة الكارو وسوارس والترام المهكع ، وأوائل السيارات والاوتوبيسات ، وكرنفال الازياء ، والحفاء ، وعفريت الليل الحافى يجرى بمشعله ليضىء فوانيس غاز الاستصباح . . . الى ما نراه اليوم فى القاهرة الكبرى ، عاصمة افريقيا . . . لابد ان كانت الظاهرة ذاتها تحدث فى المغرب ، وان تفاوت الزمن ، متقدما فى مصر ، متأخرا فى غيرها من بلاد الشمال الافريقى .

فى الرباط ، من مقعدى على الحادة الواسعة ، احسست كأنى بالقاهرة فى صميم العصر الحاضر ، الا فيما يختص بالعنصر المحافظ ، وما برح ظاهرة مميزة فى عاصمة المغرب ، وقد قارب على الاختفاء تماما من وسط العاصمة المصرية . فى فاس ومكناسة أوضح من الرباط ، وفى مراكش كأنها أيام مولد السيد أحمد البدوى بطنطا ، ولا أنساها فى العشرينات ، ولم تردم الجعفرية بعد ؛

وكان حفل المولد يقام فى ارض فضـــاء نعبر اليهـــا على كوبرى سيجر ، حلقة الحشر حول مركز « الصارى » الاعظم .

الفتيان الجالسون حولى بالمقهى ، والعابرون بى ، طوال شعر الراس ممطوطو السوالف ، هم شـــبابنا بالتمام والـكمال ، وان كانوا أكثر حدة وعصبيـــة ، وانشط خطوا ، والفتيات هن فتياتنا وان كن أكثر رزانة وخفرا ، ولـكن المحتفظين بالزى المغربى : الجلابة ذات الـكبود ، للرجال والنسـاء ، بالنسـبة الى لابسـات المينى والماكسى والبنطلون ، والى لابسى البنطلون المحزق كانه المايوه ، اظهر مما تراه فى القاهرة ، هذا الى ان الحجاب الابيض والازرق اكثر اصرارا على البقـــاء فى المغرب ، بينما البرقع بالعروسة وبغيرها قـــد اختفى أو كاد فى شوارعنا الحديثة ، هذا فى الواجهة الحضارية لبلدينا .

أما الواجهة القومية « الفولـكلورية » فكانت حيـــة منتعشـة بعاصمة الجنوب : مراكش الرائعة ، أعادتنى الى ماضى البعيد فى موالد السيدة زينب ، والحسين ، والحسينية ، والمحمدى ، وذلك عندما قضيت العصرية اتجول فى ميدان مراكش الشهير باسمه المخيف « جمعة الفناء » : ما بين الحاوى بألاعيبه وطلوع زرابينه وحياته وثعابينه ، والشاعر بربابة وبغير ربابة ، ولاعب السيرك على القارعة، وجواسق الباعة، وحامل الماء « الحملى » الذى اختفى من القاهرة منذ طفولتى ـ وهو فى مراكش يذكرنى ببطـل أوبرا « النـاى الســحرى » لموزار : « باباجينو » المـدندش ، وبمصـارع الثيران ، بقبعة واسعة يتدلى منها « الصفا » والجلاجل ذات الجرس النحاسى ، يستجيب لضربات صاجاته وكاساته تنادى العطاشى ، وقارىء البخت ، وضارب الرمل والودع ،

وحلاق الهواء الطلق يصفف اللحية ، ويحلق الراس زلطة .

سرحت فى « المدينة » ـ كما كانت تسمى فى صفرى احياء الحمزاوى ، والتربيعة ، وخان الخليلى ، وتحت الربع ، والفورية ، والخيمية ، والسروجية ، وحارة اليهود ـ كل ذلك فى مراكش ، وفاس ، ومكناسة ، وغيرها ، ما فتىء حيا صاخبا لم يغيره الزمن كثيرا ، بينما العمران فى عواصمنا يعبث بقاياه ، وكأننا نأنف من بقائه .

وجامع « الكتبية » بمراكش لم أر حوله أثرا لمصدر اسمه ، وان ذكرنى بكتبية الحلوجى ، وكانوا فى صغرى حانوتا لصق دكان ، يجلس فيها الوراقون القرفصاء او يتربعون فوق ارضية خشبية تعلو بأكثر من ذراع عن ارضية الشارع .

اهم المدن التى زرتها فى رحلتى الاخيرة هى : فاس ، ومراكش ، والرباط، ومكناسة ، توصف هناك بالحواضر الملوكية : تحمل تاجا فوق « ركنها » أو شعارها، يعلوه خاتم سليمان ، النجمة المخمسة الخضراء التى تتوسط الراية المغربية . « فاس المحمية » كانت عاصمة الادارسة والمرينيين والسعديين ، و «مراكش الحمراء» كانت حاضرة المرابطين والموحدين ، دون أن ترتد فاس خطوة الى الوراء ، و « رباط الفتح » انشأها أول الموحدين عبد المؤمن « قصبة » أى قلعة وقصرا ومسجدا ، ووسعها خلفاؤه ، واختار مولاى اسماعيل « مكناسة الزيتون» عاصمة لملكه (ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر) ، ثم عادت الرباط حاضرة المغرب فى حكم خلفائه من أسرة الاشراف العلويين ، سلاطين المغرب وملوكها الى يومنا هذا .

ان جمال المغرب الاقصى ، واقبال السائحين عليه من كل صوب وحدب ، وحسن استعداده لاستقبالهم ، لم ار له مثيلا فى بلاد الشمال الافريقى ، وما برحت مصرا على ان الاندلس تفرض على زائريها اتمامها بزيارة المغرب الاقصى ، اذا راموا أن يعيشوا الاندلس الاسلامية عينا لا أثرا .

الفن الأندلسي المغربي

« البربر قوم ذوو همة وباس ،
حباهم الرب من فضله بكثير »
ابن خلدون

لا أدرى مدى تحمل القارىء لكل الفذالك التاريخية التى حرصت فيها على أن أسبر أعماق شعب البربر ، ذلك الشعب العجيب ، الذى لم يكن يقدر له أكثر من تناحر قبائله وافخاذها وبطونها ، تنحدر من سفوح جبالها لتتولى تقشيط السهول والفحوص ، وتعود منها بالاسلاب .

لم يقدر عليهم الفينيقيون ولا القرطاجيون ولا الرومان ، ولعل « وليلى » (فولوبيليس) كانت ابعد ما بلغه الاحتلال الرومانى للمغرب الاقصى ؛ ولقد عرف ابناء روما المستعمرون المنظمون ، بأمر القوة القتالية للبربر ، مع الاحتمال والتقشف ، فجندوا منهم فرقا (ليجيون) من المشاة والركبان ، تؤمن لهم الخلفية الجبلية الخطيرة .

اقول : لم يكن يقدر لعشائر البربر ، ولا لفلاحى السهول ، أن يقوم لهم ذكر تاريخى مميز ، لولا أن ضمت شملهم شريعة نزل بها على جاهلية شبيهة ، كتاب الحياة الدنيا والآخرة ، تؤمن بالوحدانية ، وتهدى القوم

الى صراط مستقيم وانسانية سامية ، شريعة لا اسرار فيها ولا احاجى ، ولا رموز .

تاريخهم منذ ضحى الاسلام شاهد على حقائق باهرة ، وهى ان فرسان العرب القادمين من الشرق بقيادة عقبة بن نافع ، ثم بزعامة موسى بن نصير ، قد جعلوا من فتوحاتهم بالمغرب حملات اضاءت نفوس البربر البدائيين بنور الاسلام ، ثم كان للعلوى سولاى ادريس ابن عبد الله ، المجاهد ضد العباسيين واللاجىء بعد هزيمته فى المشرق الى حمى البربر فى المغرب ، بمحلة « وليلى » ، والممهد هو وابنه لانشاء اجمل وارسخ حاضرة مغربية على جانبى وادى فاس ، اثر اعمق فى نفوس القبائل البربرية من كل فتح وغزو ، فثبتت قواعد الاسلام ، وتمكنت من نفوسهم .

وواجبنا ونحن نطرق حضارة المغرب الاقصى ابان العصر الوسيط ان نؤكد ما تدين به العشائر المغربية لحضارة الاندلس ، والاصل فيها هو قيام الدولة التى اسسها عبد الرحمن الداخل الاموى فى قرطبة مستوحيا حضارة اسرته فى الشرق الاسلامى ، واذا كان ملوك الطوائف قد انتهوا بالدولة الاموية الباهرة فى الاندلس، الى التفاشل والتفسخ ، مما شجع أسبانيا المسيحية على القيام بحروب الاسترداد من شمالى شبه الجزيرة ، فقد تمكنت دولتا المرابطين والموحدين من ايقاف الزحف القشتالى الارجونى اللاونى الى مدى من الزمان والمكان .. وبذلك تم اخصاب المغرب بحضارة الاندلسيين ، واضحى الحكم الاسلامى ، قبل جلائه نهائيا عن شبه الجزيرة ، كلا لا يتجزأ ، يجمع بين الضفة الشمالية لبحر الزقاق ، وضفته الجنوبية ، اى بين عدوة الاندلس وعدوة المغرب .

ومع ماتدين به الدول الاسلامية فى المغرب والاندلس لحضارة الشرق الاسلامى وهو المنبع والاصل ، فان طبيعة الناس والارض والسماء ، وما تم من الاختلاط الوثيق بين المسلمين ، عربا وبربرا وموالى ، وبين الاسبان، سواء من أسلم منهم أو من التزم بمسيحيته ، قد طبعت المغرب وأدبه بخصائص مميزة ، وشخصية فريدة وسط الفنون الاسلامية ، وهى ظاهرة معروفة فى تنوع الفنون الاسلامية ما بين أواسط آسيا ، وشمالى الهند وبلاد ما وراء النهر ، وهضبة ايران ، ووادى الدجلة والفرات ، وسوريا ومصر ، والمغرب والاندلس .

وسنختار من ذلك التزاوج بين حضارة الاندلس وحضارة المغرب بعض الامثلة التى توصف فى تاريخ الفنون بالفن « الهسبانو ـ موريسكى » ، أى الفن « الاندلسى المغربى » اذا اردنا توخى الدقة التاريخية ، وذلك على امتداد تاريخ الدول التى نشأت بالمغرب الاقصى ، علما بأن الفن المغربى قد واصل طريق اصالته وخصائصه ، حتى بعد انتهاء الحكم الاسلامى بالاندلس خاضعا لسنة التطوير ارتفاعا أو هبوطا .

وامثلتنا مختارة من بين أهم منشآت الفن الاسلامى، وهى دور العبادة ، مساجد وجوامع وزوايا ، وما يتبعها من معاهد العلم ، والمدارس لاقامة الطلاب ، ثم عمارة التحصينات فى أسوار المدن وأبوابها ، وما يعرف «بالقصبة» ، وتعنى مجموعة القلعة والحصن والمسجد والقصر ، وعمارة الرباطات ، وأخيرا المنشآت الخاصة والعامة من قصور الخلفاء والسلاطين والامراء ، والبيوت والحمامات العامة والاسواق والقيساريات ، ولنترك جانبا فنون الزخرف فى الصناعات والحرف المختلفة .

ولقد اشرنا فى فصل سابق الى أثر الاندلس فى الموسيقى المغربية « الفنية » تمييزا لها عن الموسيقى الشعبية فى السهول ، المعروفة « بالجربية » وينشدها الشيوخ والشيخات على نصوص باللغة الدارجة ، وعن موسيقى البربر : « اهيدو » فى جبال الاطلس الوسطى ، و « اهواش » فى الاطلس العليا .

وبدين المغرب الاسلامى لمشارقه فى فن الموسيقى ، حين خرج أبو الحسن على بن نافع ، المشهور بزرياب ، عن بغداد قاصدا قرطبة ، منشقا على أستاذه اسحاق الموصلى ، وقد تلقاه الاموى عبد الرحمن الثانى بالترحاب والنعم . ولم يقف دور زرياب عند الموسيقى التى ازدهرت بفضله فى بلاط الامويين بالاندلس ، فكان مستشارا خاصا للخليفة فى شئون الفن والاناقة (٨٢٢ م) .

اجتمعت لزرياب ملكات الشعر والتأليف الموسيقى والعلم ، مقتفيا أثر الكندى استاذه ، وزرياب هو الذى أضاف الى العود وترا خامسا ، وهو صاحب مدرسة فى الغناء يعتبرها الاوربيون اساسا لتدريب الصوت بتمرينات على التصويت « الفوكاليز » وهو واضع قالب التأليف الموسيقى الذى يبدأ بالنشيد فى نوع من التلاوة المنغمة ، ويتبع بالحركات ويختم بالاهازيج .

الا ان الموسيقى فى ممالك غرناطة واشبيلية وبلنسية قد تأثرت بالفن الاسبانى ، ونزحت عن جو الدعة وهناء المعيشة وسط طبيعة كريمة خلابة ، وكانت اشبيلية مركزا لصناعات آلات العزف : القانون ، والعود والرباب والسلامية والناى والبوق ، وقيل فى المقارنة بين اشبيلية وقرطبة : « اذا مات عالم باشبيلية

حملت كتبه الى قرطبة حتى تباع فيها ، وان مات مطرب بقرطبة ، وأريد بيع آلاته ، حملت الى اشبيلية»

والاندلسيون هم مبدعو « الموشحات » ضربا من الشعر المصوغ للغناء المقطعى ، و « الازجال » التى خرجت عن قواعد الفصحى الى العامية الاندلسية تختلط فيها العربية بالاسبانية ... والبربرية .

ويعزو عبد الرحمن بن خلدون ابتداع قالب الموشحات الى الشاعر عبادة بن القزاز (القرن الحادى عشر) ، والزجل الى ابن قزمان (القرن الثانى عشر) .

والموسيقى الاندلسية انتقلت الى المغرب نتيجة للهجرات الكبيرة التى اضطر اليها المسلمون واليهود نتيجة لحركات الاسترداد المسيحية .

فعند سقوط قرطبة (١٢٣٦م) ، هاجر نحو خمسين الف مسلم الى تلمسان ، ومع سقوط اشبيلية ، تقاسمت غرناطة ، والشمال الافريقى آلاف المهاجرين ، كما تقاسمت غرناطة وفاس مائتى الف مهاجر بعد ضياع بلنسية ، وتلقت تطوان سيل المهاجرين المسلمين ، وعلى رأسهم أبو عبد الله من بنى الاحمر ، آخر ملوك المسلمين فى الاندلس .

ولا مكان للزعم بأن المغرب الاقصى اخرج فى العمارة طرازا يتفوق على ما ابتدعته قرطبة ، أو القيروان ، وحتى القرن الحادى عشر لم يظهر به ما هو جدير بالذكر .

انما عصر المرابطين، أبناء لمتونة من بطون الصنهاجة ، هو العصر الذى استألف الفن الاندلسى (منذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر) وأدل مثل على تأثر المغرب بالاندلس نراه فى جامع القرويين ، ومسجد الاندلسيين بفاس ، وما أسرع ما يدرك الزائر تأثر هذين بالمسجد

الجامع فى قرطبة ، وسواء لمست فى طراز الاساطين الضخمة وعقودها المفلطحة بدائية المقلد أو شخصية المستألف ، فانك حيال فن قرطبى ، ما فى ذلك من شك

وفى عصر الموحدين (منذ النصف الثانى من القرن الثانى عشر) — وكانوا أوثق صلة بالاندلس — يتفجر الفن الاندلسى — المغربى استلكتيات أو مقرنصات ، وقبابا وعقودا تبدو فى مساجد تازة ومراكش ، وحتى فيما بقى من مسجد « تين ملل » ، حيث دفن ابن تومرت فقيه السوس .

وهذا ابو يعقوب بن عبد المؤمن يقوم على انشاء مسجد اشبيلية الجامع وقد هدمه الاسبان ، وتمسك اهل المدينة بصومعته (منارته أو مأذنته) الكنز الغالى الى اليوم ، تحمل برج النواقيس لكاتدرائية اشبيلية ، اعظم كنائس اسبانيا ، وتعرف فى تاريخ العمارة باسم « الخيرالدا » .

وأكمل أبو يوسف يعقوب المنصور عمل جده فأتم قصبة مراكش ومسجدها الجامع ، وهو الذى اعتزم انشاء جامع من أكبر وأوسع جوامع الاسلام بمدينة الرباط ، وأقام صومعته ، الشقيقة الصغرى «للخيرالدا» بأشبيلية و « الكتبية » بمراكش ، ولم يتح له ان يرتفع بها الى غايتها ، ولا أن يكمل بناء الجامع ، فهو اليوم باحة بارحة فى فضاء الرباط ، رصت فيها الاعمدة ، وتحمل المنارة المنقوصة المبتورة اسم « برج حسان »

وأروع المآذن أو الصوامع فى رأيى المتواضع هى منارة « الكتبية » ، بدأها عبد المؤمن وأتمها أبو يوسف يعقوب المنصور ، كاملة المعانى ، لم يشوهها برج أجراس ولا دوارة رياح (خيرالدا) ، بل تعلوها التفافيح الثلاث (جمع تفاحة) ، وهى كرات من معدن مذهب تلبس فى

صارى المنارة ، بأحجام تتناقص صعدا ، (بأقطار مترين، ومتر ونصف متر) ، قيل بأنها كانت فى الاصل من حلى زوجة المنصور ، جادت بها لتتوج عمل بعلها ، وأيا كان المعدن الذى صنعت منه ، فما برحت تضوى بانعكاس اشعة الشمس عليها ، فاذا مالت هـذه الى المغيب ، بدت فى الافق البعيـد جبـال الاطلس ، تتوج الثلوج قناتها ، تشرف عليها من علو أربعة آلاف متر قمة جبل « توبكال » .

وفن بنى مرين لا يقل فخامة وجمالا ، وقد امتدت دولتهم من الجزائر الى المحيط الاطلسى ، ومن اقصى الجنوب حتى اقصى الشمال فى الاندلس ولا تكاد مدينة فى المغرب تخلو من أثر مرينى عظيم : فى تلمسان وتازة وفاس ومكناسة وسالا ومراكش وسبتة وغيرها .

وحقق المرينيون فنا أندلسيا مغربيا رائعا فى « المدارس » أى مساكن طلبة العلم ، وخاصة تلك التى انشأها السلطان بوعنان .

كان الموحدون بناة معاقل وبيوت عبادة ، أما المرينيون فقد درجوا على الحياة فى مظهرها الاندلسى ، بيوتهم وقصورهم متعة للبصر وكذلك مساكن الناس ، والحمامات العامة ، والوكالات ، والبيمارستانات ، وأسوار العيون ، والحصون ، اقيم كل ذلك بفضل تبرتمبكتو ، بأيدى صناع حذاق فى البناء والزخرف ، قيل بأنهم كانوا يعملون على نغمات الموسيقى الغرناطية!

وسار من جاء بعد المرينيين على الدرب ، وان مالوا الى الاغراق فى الزينة والبرقشة والنقش ، واستعمال « الزليج » الاخضر الفاقع زخرفا للواجهات والحيطان.

وأجداث المرينيين والسعديين والعلويين ومدافنهم نماذج جميلة للفن المغربى الاندلسى ، وكذلك الاسوار

والبوابات والقصبات تأسر الزائر بالوانها الخضراء ، وما اروعه مشهدا اذا وقف المســافر على مبعدة من فاس او مكناسة ليتأمل هذه الجواهر تحميها الاسوار العتيقة والابراج العابسة وسط الهضاب ، وترتفع فى سمائها الصوامع اللامعــة ، مربعة الاركان ، ما لم نتعود نحن اهل الشرق الاسلامى على رؤيته فى مآذن مساجدنا ، ولا فى بوابات أسوارنا ، الا فيما ندر .

عبور الحدود فراق

رعى الله اياما اذا سر غيرها فان سروري بعدها متكلف .
ابن سعيد المغربي

لا معنى لعبور حدود البلدان عند ركاب الطيارات : الا أن تعلن المضيفة بمكاننا فى الهواء وقت المرور فوق التخوم ، وعرفت فى زمان مضى اجتياز الحدود فى القطار ، فلم تزد عن دخول بوليس الحدود على الديوان ليبصم جوازات المسافرين ، يتبعه رجل الجمارك ليتناول الاقرار ، ويتفرس فى أوجه الجالسين ويتأمل الحقائب المرصوصة فوق الشبكة ، وقد يطلب انزال واحدة منها أو اثنتين ، ولا أذكر ان مفتش الجمرك بقى فى ديوان أكثر من بضع دقائق .

اما فى عربات النوم فانسانية مفتشى الجمارك ، وشرطة الحدود تأبى فى غالب الاحيان ايقاظ الراكب ، وتكتفى الشرطة بختم الجواز ، والجمركشى بتناول الاقرار من مندوب شركة عربات النوم .

لم اعرف اجتياز الحدود بالسيارات الا فى أواخر الحرب العالمية الثانية بعد تحرير لبنان من ربقة حكومة فيشى ، فعبرت خط الحدود من لبنان الى فلسطين الانتداب . ونسيت الآن كيف عوملنا ، والغالب انا حملنا

الحقائب حتى صالة التفتيش ، وعتلناها عائدين بها الى التاكسى العام .

ولكنى لم انس فى تلك الرحلة كيف عوملت بصالة التفتيش عند وصولى بالطائرة الى مطار بيروت ، وكيف احتجز موظف الجمرك ، أو شرطتها ، أوراقا بخط زوجتى تقدم بها مختاراتها المعدة للطبع ، من دائرة معارف ديدرو ، فما ان قرأ الزلمة فى الاوراق اسماء روسو ، وفولتير ، ودالامبير ، حتى شخر ونفر، وتوليت عنه سب الشمس والقمر، ولم يكلفنى الزعيق والغضب سوى ضياع أوتوبيس شركة الطيران ، واضطرارى الى نزول بيروت فى تاكسى خاص ، واحتفاظ زلمة الجمرك بمقدمة أدبية تأليف الحرم المصون ، وقد استرجعنا أوراقها من الفرنسى القائم اذ ذاك على الرقابة فى لبنان الانتداب ، اعادها الينا بمنزله العامر فى بيت مرى على فنجان شاى وبيتى فور .

الجديد فى حكايات العبور حدث أثناء رحلتى الاخيرة بالسيارة ، فقد اجتزت التخوم ست مرات (فرنسا ـ اسبانيا ـ المغرب ـ الجزائر ـ تونس ـ ليبيا ـ مصر) والمرة تحسب مرتين اذ تمر بشرطة جمارك البلد الذى تغادر وبأندادهم فى البلد الذى تدخل .

ولقد ذكرت فى أول فصول الرحلة طيب المعاملة فى كل هذه الجمارك دون استثناء ، حتى فى جمرك ليبيا حين ظهر ان تأشيرة الدخول التى حصلت عليها من قنصلية ليبيا بباريس « طايحة » ، فسألت الجندى الحارس عن معنى « طايحة » فى هذا الصدد ، لاننى لم أر راس التأشيرة فى مكان وجثمانها فى مكان آخر.. قال : «طايحة » ما بيمكن الدخول ، ضحكت وقلت له ان من حقى على الاقل ان اجتاز البلاد فى حدود ٧٢

ساعة ، ورجوته التوجه الى ضـــــابطه ، وعلى الله التساهيل ، واتحفت بتأشيرة جديدة بدل « الطايحة » (ولم يمض عليها أكثر من شهر !) وطوابع من الفئات العالية !

ومع الرقة وحسن المعاملة ، فان عبور الحدود فى افريقيا يستغرق وقتا غير قصير ، مرده الحب المتبادل بين البيروقراطية وبين الاستمارات والاختام والطوابع

انما اعنى فى هذا الفصل بشعور الرحالة عندما ينتهى من زيارة بلد ويتجه الى البلد المتاخم ، والعادة ان يقضى المسافر ليلته فى اقرب مدينـــة الى الحدود ، وكانت مدينة الجزيرة « الخيثراس » فى الطـرف الجنـوبى لاسبانيا و « وجدة » بالمغرب و «عنابة» (بون) بالجزائر ، و«قابس» بتونس و«طبرق» بليبيا ، واحمل من هذه المدن جميعا اطيب الذكريات ، مع شعور غامض مبعثه فراق الماضى ، وتوقع المستقبل . نهاية حقبـــة ، وبدء حقبة ، غروب شمس وترقب شمس جديدة ، وتحول من نقد الى نقد ، ومن رنين لغة او لهجة الى لغة او لهجة اخرى .

اجمـل مدن التوديع كانت « الجزيرة الخضراء » بموضعها على بحر الزقاق وفنـدقها الفخم بحديقته الغناء المطلة على البحر ، اشبه بحدائق القصور الكبيرة والغالب ان الفندق قصر معدل . كنت حزينـــا لوداع الاندلس ، وكان آخر عهدى بها اشبيلية « الخيرالدا » وحى « سانتا كروث » و « برج الذهب » حـارس « الوادى الـكبير » .

« قال الرازى : « مدينة الجزيرة الخضراء من ارشق المدن واطيبها ، وارفقها باهلهـا ، واجمعها لخير البر والبحر ... ومرساها احسن المراسى للجواز وارضها

ارض زرع وضرع ونتاج ..

« قال ابن سعيد المغربى : لما رجعت اشبيلية الى ابن هود ولى على الجزيرة الخضراء والدى ، فقمنا بها مدة فى عيش يجب ذكره والحنين اليه ، وفيها أقول :

رعى الله أياما اذا سر غيرها
فان سرورى بعـــدها متكلف

« وعنـدما يخرج الانسـان من بابها ، يجد الميـاه الجارية والبساتين النضرة ونهرها يعرف بوادى العسل سمى بذلك لحلاوته » . (المغـرب فى حلى المغرب)

ذهبت فى الصباح الى ميناء الجزيرة ودخلت اقود السيارة الى موضعها من المعدية الكبيرة ، ثم ارتقيت الى سطح السفينة اتامل صخرة «جبرولتار» واتفحصها بالمنظار المقرب ، ولم يكن لى هم اثناء ساعة العبور (٣٠ كيلومترا) من الجزيرة فى اوربا الى سبتة فى افريقيا سوى التطلع الى بوغاز جبل طارق ، وصخرة طارق ، والتفت الى طرف اوربا ثم الى طرف افريقيا دواليك ، بوغاز أراه لاول مرة على تكرار ذكره فى محاضراتى على طلبة الدراسات العليا لعلوم البحار بجامعة الاسكندرية ، وما عرفته من تياراته السطحية والعميقة : واتصالاته البيولوجية الهيدروجرافية بين البحر المتوسط والمحيط الاطلسى .

عندما دخلت المعدية ميناء سبتة الافريقى ، غاب عنى انها مدينة تابعة لاسبانيا ، لاسيما وان جواز السفر وتفتيش الجمرك قد أجريا فى ميناء الجزيرة ، فمررت بجمرك سبتة على ظن انى ادخل بلاد المغرب واذ بنا نغادره ركوبا ، دون ختم الباسبور .. عجيبة ! وقطعت بالسيارة غلوة على الكورنيش اتساءل : وماذا اصنع عند خروجى من المغرب الاقصى ، فلا يجدون على الجواز

تاشيرة دخول ؟ وفكرت بان أعود ادراجي حين ظهرت شرطة المغـــرب على مفرق طريقين ، ووجهت ســـيارتنا الى الطريق الداخلى ، المنفصل عن طريق الـكورنيش، فما هى برهة حتى وجدتنا فى الدائرة الجمركية للمملكة المغربية الشريفة .

وصدر خطأى ان طنجة كانت مقيمة على وضـــعها الدولى عند زيارتى الاولى للمغرب (١٩٥٨) ثم علمت بعد ذلك انها ردت للمغرب وهـذا سر رحالتها العظيم محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ، المعروف بابن بطوطة (طنجة ١٣٠٤ ـ فاس ١٣٧٧ م) وظننت انها آخر ما للمغرب من ارض يحتلها الآخرون .

أما حزنى الاعمق فقد كان يوم خروجى من مكناسة ، المدينة الساحرة فى اتجاه الحدود بين المغرب والجزائر ، على طريق طويل يعبر فتحة « تازه » وهى الممر الهام جدا بين جبال الأطلس وجبـــال الريف ، وكانت باب العزو من الشرق . وصلت الى مدينة « وجدة » الهادئة الناعسة ، فسيحة الطرقات فى شطرها الحديث ضيقة المسالك مزدحمة فى شطرها القديم : « المدينة » أشبه بحى سوق الزلط والميدان بباب الشعرية .

وفى الصباح الباكر اجتزت الحدود راسا الى تلمســـان حيث تناولنا الغداء بعد جولة سريعة بالمدينة التاريخية مساجدها وقلعتها وقد شـــاركت تلمســـان فى تاريخى المغرب والجزائر، كما سأبينه فى حديثنا عن بلاد الجزائر واستانفنا السير الى وهران فوصلنـــا فى المساء ، ولم ترق لنا الاقامة فيها ، فهى مدينة حديثة وميناء كبير، ومركز تجارى ، لا اثر فيها سوى كنيسة اسبانية قائمة على مرتفع شاهدتها من نافذة الفندق .

وانتابنى شـــعور الفراق والانتزاع فى نهاية تجوالى

بالجزائر عندما وصلت الى عنابة لاقضي فيها الليلة السابقة على المجاز الى البلاد التونسية . لم أقم في عنابة ذاتها ، وانما ارتقيت الى ضاحية لها تطل على البحر من ربوة عالية (٩٠٠ م) انشأ فيها معمارى فرنسي فندقا على نمط ما يعرف في بلاد القبائل وجبال الاوراس (بالقصور) وهي بيوت البربر تتجمع على سفوح الجبال كأنها القلاع . اسم المعمارى بويون ، كان من أشهر مهندسي باريس ثم قضى في السجن سنوات بتهمة التبديد أو شيء من هذا ، نتيجة حياة البذخ والعظمة التي كان يعيشها في عاصمة فرنسا .

وعندما هبطت من الضاحية الى عنابة في صباح اليوم التالي ، يممت شطر « سوق الاحراز » (وللاسم عندي رنين المواقع بين جيوش الحلفاء والنازية في الحرب العالمية الثانية) ، ومنها الى « غار الدماء » (جارديماو) البلدة التونسية على الحدود ، ثم اندفعت تاركا ورائي الوعر والجبال ومسالكها الحلزونية الى السهل الممتد من غار الدماء الى « جندوبة » و « بجا » و « مجاز الباب » (ذكرى المعارك المشار اليها) فمدينة تونس ، ولم أدخلها بل سقت توا الى ضواحيها على شاطىء بحرنا .. أبحث عبثا عن فندقي القديم الى جانب معهد سلامبو الاقيانوغرافي ، وضحكت من نفسي وأنا أشبهني بأهل الكهف ، أتوقع بعد أربعين سنة أن أرى الناس هم الناس والبيوت هي البيوت ، واذا بضاحيتي سلامبو وقرطاج وغيرهما قد تحولت الى مصايف من أجمل ما ترى العين فخامة بناء ونظافة طرق ، ومطاعم وفنادق وكازينوهات ، فنزلت بفندق من أفخم فنادق البلاد التونسية ، يحمل اسم ابي هانيبال ، ومنه بدأت استيحاء ذكرياتي القديمة في قرية سيدي بو سعيد ،

تحفة فى سلامة الذوق والبساطة ، واذا لم تفقد سلامة الذوق فى مبانيها على النمط الاندلسى المغربى ، فقد تحولت الى فيللات انيقة ، لم اعرف منها فى شبابى سوى فيللا العلامة الموسيقى الفرنسى البارون ايرلانجيه ، ناشر ترجمات كتب التراث العربى فى الموسيقى وكان البارون واحدا من منظمى مؤتمر الموسيقى العربية عام ١٩٣٢ ، زاره حينذاك أمين عام المؤتمر صديقى الاستاذ الدكتور محمود أحمد الحفنى ، وتداول معه فى الاعداد للمؤتمر الشهير .

ثم حلت ليلة الوداع للقطر التونسى فى فندق على البحر بمدينة قابس ، صورة من التنظيم السياحى السديد الذى قامت به الجمهورية الشقيقة بعد تحقيق استقلالها بزعامة المجاهد الكبير الحبيب بورقيبة .

وفى الصباح اجتزت طريقا معبدا وسط مناطق عفرة جفرة الى « مدنين » ومنها الى « بن قردان » فنقطة الحدود .

دخلت ليبيا متجها الى طرابلس وقضيت ليلتين قبل ان ابدأ الرحلة الطويلة جدا فيما بين طرابلس وبنغازى (١٢٠٠ كيلومتر) ، وقد سعيت الى حل لتقسيم الطريق الى مرحلتين ؛ وكان مواطن ليبى قابلته فى صفاقس قد دلنى على محلة فى نحو منتصف الطريق تسمى سيرتا ، قضينا الليلة بها فى نوع من النزل البدائى تعشينا فيه بسمكة صادها لنا صاحب النزل ، اطعمنا منها لحما وشوربة .

وواصلنا السير فى الصباح الباكر الى بنغازى ، وكنا قد مررنا فى النصف الاول من الطريق الطويل بزليطن (لبتس ماجنا الرومانية) ومسراطة والبويرات ، وبعد سرتا مررنا براس سدرة ، ومرسى العويجة (ذكرى

الحرب) ومرسى بريجا والعجيلة واجدابية (شرحه) ، وتتركز فى خليج سدرة موانى بترول الجمهورية الشقيقة

لم تترك طرابلس فى نفسى أثرا ، فهى خليط من المدينة العصرية والمدينة الليبية ، وليس فيها سوى موقعها الجميل على البحر وروضة لا بأس بها ، أهم منها امتداد الكورنيش بطول المدينة .

وبقيت فى بنغازى اكثر من ليلة لأتمكن من زيارة « طلميثه » ، وبعدها اتجهت الى طبرق وعرجت فى الطريق على موقع مدينة « قرينة » القديمة ، وقد اخطأت الطريق اليها مرتين من جراء غلطة طفيفة فى الخريطة وجهتنى من ميسا الى حانيا ، قطعت نحو ثلاثين كيلو مترا ريحة جيئة لاكتشف فى حانيا انه حتى رجال الشرطة ، لا فكرة عندهم من وجود آثار قديمة على مقربة منها ، ثم نبهتنى مطوية سياحية محلاة بالصور عن قرينة ومحررة بالالمانية الى فقرة تقول بأن قرينة هى قرية « شحات » ، وهنا تكشف لى الطريق اليها متفرعا من البيضا الى الشحات ، ومنها الى قرينة .

وهذه هى أجمل الآثار القديمة فى ليبيا ، اشرفت عليها فى نهاية الطريق من عل ، ولقيت شابا ليبيا جالسا على جانب الطريق يتأمل المدينة اليونانية ، لم أتوقع أن يعرف الفتى عنها شيئا ـ كما حدث مع شرطة حانيا ـ واذ به شاعر يتغنى بسحر الموقع ، وما تبقى من آثار به تشهد للمدينة بصدق ماتقوله المطوية السياحية « قرينة سر من أسرار العالم القديم ، بل هبة من الطبيعة ، لوحة لفنان موهوب ، أسطورة لشاعر مبدع ، هى مدينة « الخرائد الثلاث » ربات الجمال والتناسق والهناء ، من اجمل مدن الاغريق القدماء

لا تتفوق عليها سوى أثينا ، وصفها الشاعر بندار بقصيدة يقول فيها : « المدينة المقامة فوق تاج من ذهب » .

وليس فى كلام الاغلام السياحى مغالاة ، فالمدينة والمدرسة الفلسفية المعروفة باسمها : « القيرينيات » ، تشغل ثلاثة أعمدة ونصفا من المجلد السادس للموسوعة البريطانية ، وتحدث عنها هيرودوت فى كتابه الرابع حديثا ممتعا ، تقع على سفح الجبل الاخضر ، أنشأها اغارقة هاجروا من سانتورين بسبب مجاعة ، واقلعوا جنوبا حوالى عام ٦٣٠ ق . م حتى بلغوا الموقع ، حكمتها أسرة ملكية مدى ثمانية أجيال ، كانت فيها مركزا اقتصاديا نافقا ، وانشات تلك الاسرة فى القرن السادس ق . م ، ميناء « ابوللونيا » (مرسى سوسة حالا) ، ثم « برقة » (المرج حالا) واخيرا مدينة « الاسبريدة » (بنغازى فيما بعد) ..

دخلت قيرينة فى حكم البطالسة عام ٣٢٢ ق . م ، وقد انشأوا ميناء لمدينة برقة سمى « بطليموسة » (طلميتة حالا) احتفالا بعقد قران بطليموس الثالث على برنيقة أميرة برقة ، وغدت قيرينة واحدة من المدن الخمس (بنتابوليس) : ابوللونيا ، بطليموسة ، توشيرة ، وبرنيقة ، وهى الخمس مدن الغربية التى ترد فى القاب قداسة بابا الكرازة المرقسية : بطريرك الاقباط .

وقد وضع بطليموس فيلادلف دستورا لقيرينة ، يحتفظ متحف البلدة بنسخة اصيلة منه ، وكانت قيرينة فى تلك العصور مركز عرفان وثقافة من مراكز العالم القديم ، اشتهرت بمدرستها الطبية ، ونبغ من ابنائها : ايراطوسطين العلامة الجغرافى الكبير بمدرسة

الإسكندرية ، والفلاسفة كارنيادس ، واريستيب منشىء مدرسة القيرينيات فى الفلسفة (الهيدونية) ، والشاعر كاليماخوس ، وقد عاش فى الاسكندرية وعينه بطليموس فيلادلف مديرا لمكتبة الاسكندرية ، دخلت فى حكم الرومان سنة ٩٦ ق.م ، وعاشت فى رخاء نسبى طوال القرنين : الاول ، والثانى للامبراطورية الرومانية ، ثم بدات فى التدهور من جراء زلزال ، وبدا اهلها فى الهجرة وانتهت حياتها بالفتح العربى عام ٦٤٢ م .

وفى زيارتى لطلميثة ، رأيت أكثر مناطق الآثار اتساعا فى ليبيا ، كانت ميناء لمدينة برقة (المرج حالا) منذ عام ٢٤٧ ق . م ، وكان لها أسطول تجارى وحربى ، وعلى خلاف قيرينة ، بقيت شهرة مينائها التجارى بعد الفتح العربى ، وكانت متصلة بالاسكندرية بخط ملاحى تبادل عسلها والزبد والجلود والغلال بالغزل والنسيج من الاسكندرية .

ثم كانت مدينة الوداع فى ليبيا هى طبرق ، قضيت الليل فى فندق خارج أسوار المدينة الحصينة (ذكرى تسليم جاميتها الاسترالية النيوزيلندية للألمان فى الحرب العالمية الثانية ! ؟

هذه مدينة وداع الرحلة الطويلة التى بدات من باريس فى ١٧ مايو وانتهت فى الاسكندرية مع ختام شهر يونية ١٩٧١ ، ولكنها لم تكن ليلة شعور بالفراق والانتزاع ، بل ليلة الفرحة باللقاء القريب بارض الوطن الحبيب ، بعد غياب ثلاثة اشهر : كيف قدرت يارب فى شبابى أن تمتد غيبتى عن هذا الوطن الى خمس سنوات

وهنا افضل تأجيل حديثى عن العودة الى خاتمة هذه الفصول ولنستانف الرحلة وقد انتهينا منها عند المغرب الاقصى .

وحان الجواز الى الجزائر ..

بين الماضي والحاضر في بلاد الجزائر

وجدتها « اوريكا » ، كلمة السر في مأساة الجزائر ، والكلام على هذه البلاد العزيزة لايمكن أن يغفل ضحايا الحرية من أهلها، غلمانا وشبابا ، نساء ورجالا ، كهولا وشيوخا ، وقد تنسيك العاصمة بازدحامها ونشاطها وحركة مينائها الكبير يطل عليه الكورنيش بعض ذلك الهم ، فالعواصم بحر متلاطم الأذى ، والسائح فيه قنينة مختومة على هواء ، يشيلها الموج ويحطها .

أما في جبال الاوراس والقبائل ، في السهل والحزن، في بجايا أو سطيف أو تيزي أوزو ، فان غمامة من الحزن الدفين تغلف نفسي بغلالتها الخفيفة ، اذ أذكر بعض الاحداث الرهيبة من غدر الانسان بالانسان ، وارتفاع الرحمة حتى عن أرق القلوب ، عندما انفجر غضب المغلوب على الغالب ، وصاحب الارض على الغاصب ، فكانت ثورة الالفين وسبعمائة يوم .

حزن ماض ، مثل تعريف « الفعل » اذا صدقت ذاكرتي (حدث والزمن جزء منه) ، والفعل الماضي يجمع بين أمرين ، حدث وزمن فات كما يقول النحويون، وفواته لا يعني نسيانه .

« اوريكا » ، وجدتها : عبارة منقوشة على الصخر (لابدير) ، حاسمة كالسيف ، في كتاب سياحي صغير

أصدرته عام ١٩٣٠ سكة حديد باريس ـ ليون ـ مرسيليا ، صفحاته خمسون ، أهدانيه مكتب كوك بباريس قبل سفرى الاول الى تونس فى ذلك العام ، ومنها الى الجزائر ، فالعودة الى باريس..

عنوان الكتيب : « الجزائر ـ مراكش ـ تونس» ، يحتوى على مجمل معلومات أساسية للزائر ، ومقدمة لمن يطلب التعمق ، والعبارة التى وجدتها جاءت تحت عنوان : « الحكومة الحالية فى الجزائر » ، وهى :

« الجزائر أرض فرنسية ! ! »

أى والله! هذه والفتاة الفرنسية التى قابلتها بباريس ووصفت نفسها بأنها جزائرية فحسبتها مسلمة من أهل تلك البلاد ، واذ بها تنكر ان هؤلاء جزائريون .. أمال يبقوا ايه يا آنستى المانوسة ، النوسة ، كوانوسة ؟..

قالت بلسان فصيح : سوسون ديزاراب : (انهم عرب) .

«الجزائر ارض فرنسية» ، وجواب الآنسة الفرنسية الجزائرية ، وما الى ذلك ، فاتحة شهية على القرف الذى عرانى فى اول زيارة لمدينة الجزائر ، فلم اقو على البقاء فيها سوى يومين ، او بعض يومين .

والكتاب الصغير لايتركنا للعجب ولا للصيام فى رجب ، قبل أن يثبت زعمه ، فيعقب بعد شولة بأنها ضمت (اقرأ مضفت وابتلعت) عام ١٨٤٨ .

فلنتابع المنطق اللاتينى : اذا كانت الجزائر ارضا فرنسية ، فلماذا لا يصبح المسلم ، من العرب والبربر، جزائريا مثل الآنسة المولودة بالجزائر من اب وام فرنسيين ؟

يجيبك الدليل البليغ عن هذا :انما التمييز ـ او « الخط الفاصل » بين الاثنين ـ هو فى الاحوال

الشخصية ، فالفتاة الجزائرية مواطنة فرنسية ـ حتى لو كانت ايطالية او اسبانية او مالطية او يهودية ، بحكم ان كل هؤلاء « قبلوا بأن يجرى على اشخاصهم واسرهم وممتلكاتهم القانون المدنى الفرنسى . . . فالجزائر ليست فى قليل او كثير مستعمرة على طريقة الدومنيون الانجليزى ، انما هي تؤلف ثلاث مديريات فرنسية ، تحكم اساسا بواسطة وزراء فرنسا ، وتشرع قوانينها فى البرلمان الفرنسى ، وهى تنتخب ، او فى الاقل : ينتخب المواطنون الفرنسيون بالجزائر ممثلين لهم فى مجلس النواب والشيوخ بباريس ، وتحميها وحدات من الجيش والبحرية الفرنسية ، الجزائر امتداد لفرنسا » .

ويظهر ان المسألة لم تمض بهذا اليسر فى «الحلقوم» فقد تعدل هذا النظام بشلوط مفيد ، عندما تعدل نظام حكم الجزائر سنة ١٨٩٨ وما بعدها الى لامركزية ادارية بانشاء وظيفة « حاكم عام » للجزائر يقوم بأعباء الادارة نيابة عن الوزارة الفرنسية .

هذا ما جعل من حرب التحرير التى بدأت فى ليلة ٣١ اكتوبر ـ أول نوفمبر ١٩٥٤ ، مأساة شعب بأكمله ، لم يقف ضد نصف مليون جندى فحسب ، بل ضد نحو مليون من الاسياد المستعمرين ايا كان أصلهم ومنبتهم ، وقد وصموا انفسهم بنعت قبيح : فهم ذوو « الاقدام السوداء » ، والاحق أن يكون السواد صفة لقلوبهم قبل أقدامهم .

فحين بدأ الفرنسى العظيم الجنرال ديجول مشروعه لتحرير الجزائر بوسيلة ديموقراطية (الاستفتاء) ، ثارت «القلوب السوداء» ، وتألب عليه القواد الفرنسيون فى الجزائر ، وناصرتهم حركة محلية امتدت الى فرنسا

ذاتها باسم « تنظيم الجيش السرى (اوه ـ آه ـ اس) تهاجم بالديناميت حتى بيوت وزراء ديجول واعوانه ، وقام منهم ضابط مهندس على رأس مؤامرة لاغتيال الجنرال ، كادت تنجح حينما اطلق المتآمرون على سيارته القنابل والرصاص ، وهو عائد الى جانب زوجته من المطار الى قصر الاليزيه ، واعدم رأس المؤامرة رميا بالرصاص .

وان النفس لتتقزز من ذكر الجرائم الرهيبة التى اقترفها الجيش المحتل و « الاقدام السوداء » مدى نيف وسبع سنين ، واليك ما سجله الكاتب الجزائرى مولود فرعون فى آخر « يوميات معركة الجزائر »ترجمة الاخ عبد العاطى جلال .

« ١٤ مارس ١٩٦٣ : الذعر يغشى الجزائر، والناس يسيرون على كل حال ، من يسعى فى طلب العيش ، أو يؤدى على الاقل مطالبه ، يخرجون دون ان يعرفوا ما اذا كانوا يرجعون أو يسقطون صرعى على قارعة الطريق ، كلنا هكذا : الشجعان والجبناء ، لدرجة ان يسأل الانسان نفسه عما اذا كانت الخصلتان : الشجاعة والجبن ، حقيقة موجودة ، أو هما وهم بلا حقيقة حقة ، كلا ثم كلا ، لم يعد المرء يميز وقد اصبحنا بلا مشاعر ولا ادراك ، بفعل حياة الخوف التى نحياها »

وفى اليوم التالى لتاريخ هذه المذكرة ، فى ١٥ مارس ، وفى حى البيار فوق مرتفعات مدينة الجزائر ، اطلق افراد المنظمة السرية اثنتى عشرة رصاصة على مولود فرعون ، أردته قتيلا .

***

سألنا شيخا جليلا فى شارع ديدوش مراد عن حانوت يبيع الخرائط ، فسار معنا غلوة يحدثنا بلغة فرنسية

انيقة عن ذكرياته فى فرقة الاصباحية مع الجيش الفرنسى في سنوات الحرب الكبرى بالميدان الغربى .

قلت لرفيقة السفر : مثل هذا الرجل قبل التحرير، كان يزهو بأوسمة الجمهورية الفرنسية على صدره ، فلم تحم انداده ، ولا أولادهم وأسرهم أوسمة ، ولا مؤازرتهم لفرنسا فى محنتها الكبرى تنافح عن ارضها ضد جحفل غليوم الثانى ، ألم يرد الشاعر رابندرانات طاجور أوسمته ولقب سير الى بريطانيا بعد مذبحة امرتسار ؟

***

معرض لمنتجات فنية صنعها الصبية ، وهم واضحو المواهب ، مثل الاطفال والصبية فى كل مكان . لفت نظرى فقر الخط العربى فى لوحات العرض ، وضعف كبير فى قواعد النحو ، وبيت من الشعر ـ فريد معرضه ـ لا أذكره الآن ، ربما كان « وانما الامم الاخلاق .. » أو شيئا من هذا القبيل ، يعوزه المجبراتى لكسر بسيط فيه .

سألت الشاب المشرف ان كان يلاحظ امرا فى ذلك البيت ، أجابنى : « هذا جاء الينا من الادارة الثقافية» صححت له البيت ، ورجوته أن ينفذ الترميم .. ولعله ينتظر وصول « المقايسة » من الوزارة « لنهو » اللازم الى يومنا هذا .

تألمت ، لعلمى بما أمام هذه البلاد من جهد ومكابدة قبل أن يستعيد أهلها التحكم فى لغتهم الشريفة ، دون أن يفقدوا اجادتهم الملحوظة للغة الفرنسية ، مثلما خسرت أجيال من الشباب عندنا ما كسبته أجيالنا من حرص البخيل على لغتنا ، مع اتقان لغة اوربية واحدة على الاقل الى جانبها .

ولست أشك فى انهم بالفون ما يطمحون اليه من تعريب حياتهم الثقافية .. فنحن لا ننسى ان كرامة من كرامات القرآن هى التى حفظت شعب الجزائر من الانحلال توطئة للزوال ، لان رفضهم القانون المدنى الفرنسى ، ذلك الرفض الذى حال بينهم وبين «شرف» المواطنة الفرنسية ، ونزل بهم الى درك الاستعباد ، هو الذى حفظ عليهم قوميتهم .

***

قضيت الليل بمدينة « مليانة » بمنطقة جبل زكور، فى طريقى من وهران الى الجزائر . يجب ان تقوم لهذا المكان قداسة فى التاريخ القومى للبلاد. هنا آخر معقل للحرية ، وقف به الامير عبد القادر الجزائرى آخر وقفة لمقاومة الفرنسيين الغزاة . لم اقف عمدا بمليانه ، بل ولم اكن اعرف مكانتها من تاريخ القضاء على حرية الجزائر ، انما الطريق الذى اخترته لم يكن المسلك المطروق ، بل كان الطريق المحاذى لشاطىء البحر جبالا بعد جبال ، وتلالا تلو تلال ، يفرض سلوك هذا الطريق اجتياز واحدها بعد الآخر صعدا حلزونيا نذهب فيه الى ارتفاع مئات الامتار ، ثم ما نلبث حتى ننحدر حلزونيا الى مقربة من سطح البحر ، لنكابد تسلقا جديدا فهبوطا ، قد تسير غلوة قصيرة فوق هضبة ، لتعود الى اللف والدوران صعودا ونزولا حتى تتعب قدماك فوق البدالات ، ويداك على عجلة القيادة تديرها يمنة ويسرة ، مع الحرص الشديد فى المنحنيات الحادة — وما اكثرها فى الجبال ويشبهونها بدبوس الشعر — واكثر معبدى طرق الجبال لا حيلة لهم فى توسيع هذه المسالك الى اكثر مما يمكن — « بدوب » — سيارتين من المرور متقابلتين فى اتجاهين .

ما أقل ما التقينا به من سيارات خاصة فى هذا الطريق ، كلها ، فيما عدا النادر ، كاميونات صغيرة تحمل تجارة أو حجارة ، عبر مجرى مياه ضحلة أو جافة ، تعبرها قناطر ضيقة لا تتسع لغير سيارة واحدة ، وواحدة من هذه القناطر كانت مجرد ألواح خشبية متراصة .. دون حواجز .. وماء المجرى ينساب من تحتها ، ويعبر فوق منتصفها فيما يشبه حركة الماء فوق السلسبيل ، تصور أن تعبر فوق قنطرة دون حواجز ، تتسع لسيارة واحدة ، وعليك أن تخوض بها ماء السلسبيل .

وأخطر من ذلك أن ترقى الى مرتفع شاهق : لتسوق على شفا جرف هار .. كلا ، ليست هذه صيغة شعرية ، فأمامك لوحات مكتوبة تحذرك من السير على حافة الطريق ، فتتعرض لخطر انهياره والتردى فى الهوة السحيقة ، لتستقر غالبا .. فوق البلاج .

وعلى الرغم من كل هذه الصعوبات ، لم تكن المخاطرة ثمنا مرتفعا لروعة المناظر وسط الارض الخضراء الى جانب بحرنا الابيض اسما ، واللازوردى أو الفيروزى ، ترصعه الشمس بحبب الماس .

كل ما كنت أخشاه من المغامرة اللذيذة ، أن لايضيق بنا النهار ذرعا فيتركنا للفسق ودجنة الليل فى تلك المعابر الوعرة المخيفة .

تناولنا الغداء عند بلدة تينس فى فندق فخم يطل على البحر ، مزدحم بأغلبية من السياح الالمان .. هؤلاء الشماليون يعشقون الجنوب عشقا ، ويذوبون حبا .. فى رمال البيداء .

لم يكن ممكنا أن نبلغ الجزائر قبل الليل ، حتى لو حرمنا أنفسنا من الغداء ، لا مناص اذن من الالتجاء

الى اول قرية او نجع يأوينا ، وهدانا السبيل بعد لأى الى مليانة ، دخلناها بليل ، حيث لقينا اللقمة البسيطة والمنامة والدكان ـ جراج .

هكذا رتب القدر أن اقضى ليلتى فى مليانة ، آخر معقل من معاقل الجهاد فى سبيل الحرية ؛ وقف فيه البطل الخالد ، الامير عبد القادر الجزائرى .

***

اقرب مكان الى قلبى فى عاصمة الجزائر ـ على ما فيها من جمال وأناقة وترف ونعيم ـ هو « قصبتها » الفقيرة ، ضيقة المسالك الطالعة النازلة ، وسط بيوت يشد بعضها بعضا ، وتكاد تتساند عبر الطريق من أعلاه .. كانت « القصبة » حصيلة رحلتى الاولى (المبتورة) ، عدت اليها فى رحلتى الثانية وقد حلت فى ربوعها الحرية ، والحرية أغلى وأنظف وأجمل وأكمل ما يتحلى به الانسان على الفقر وشظف العيش وضيق المثوى .

وزرتها فى رحلتى الثالثة وهى التى تفرغت فيها لزيارة سياحية ، اخترت السكنى فى مواجهة أحب بحار العالم لدى رجل كانت مهنته دراسة علمية للأقيانوس (الاقيانوغرافيا) . لم أر فى مدينة من أرشق مدن العالم موقعا ، ما يسترعى النظر كأثر ذى قيمة كبيرة ، وكان كل أثر فى هذا البلد يفرض عليك العودة الى مأساة الاستعمار الطويل ، فكان مسجد من المساجد الذى أطلت زيارته قد تحول بعد الفزو الى كنيسة ؛ وأعاده أبطال التحرير الى ماضى انواره ، ما أغرب أن يصنع فرنسيو القرن التاسع عشر ـ أبناء ثلاث ثورات! ما صنع الاسبان المتعصبون بأماكن العبادة فى حرب الاسترداد قبل ختام القرن الخامس عشر ، وما بعده

.. وما صنع محمد الفاتح بكنيسة أياصوفيا عقب استيلائه على القسطنطينيه ! لم يكن المستعمر فقيرا ، ولا كان انصرافه عن البناء تراخيا ، وانما كان التعصب واذلال انسانية اهل البلاد هو الدافع الى العمل الخسيس .

والادهى ان تأتي حكومة الجمهورية الثالثة ، العلمانية ، فعلا بغيضا ادا فى الايالة التونسية ، وفى الربع الثانى من هذا القرن العشرين ، وليس لها فى تونس اى حق الا اذا كان بسط الحماية بالعافية والزور والجشع الاستعمارى يعطى حقا ، ولا انقل هنا كلاما سمعته ، او تواتر أخبار ، فقد تصادف أن كنت أقيم فى تونس ، وشهدت بعينى رأسى واقع المؤتمر « الافخارستى » ، الذى نصب هناك فرضا على ذلك البلد الاسلامى ، احياء لذكرى مستعمر صليبى قديم ، لويس التاسع ، الملك القديس ، المغلوب على أمره فى بيت لقمان بالمنصورة ، والمتوفى بالطاعون فى موقع قرطاجة بضواحي تونس .

***

قمت من قسنطينة لاقضي يوما فى آثار « تمجاد » المدينة الرومانية شبه الكاملة ، على بعد ١٥٠ كيلومترا ، انشئت عام ١٠٠ م ، فى حكم الامبراطور تراجان على اقدام جبال الاوراس وارتفاع ألف متر ، وفاتنى أن أواصل السفر لاقضى ليلة فى واحة بسكرة (على بعد ٢٥٠ كيلومترا من قسنطينة) فجمالها جدير بزيارة ، وآسف على هذا التقصير ، وعذرى انى ، وأنا عارف بأن عقبة بن نافع الفهرى ـ فاتح المغرب ومؤسس القيروان ـ توفى فى بسكرة لم اكن أعلم ان له بقرب الواحة مقاما ومزارا ، عرفت ذلك بعد عودتى الى مصر

وانا اطالع ما كتبه صديقنا الأستاذ جاك بيرك ، المولود فى الجزائر ، حين عاد الى ربوعها سنة ١٩٦٥ ، قال :

« هل القى الاصالة التى عهدت فى مقام سيدى عقبة ؟ وا اسفاه ، كان هناك دليل تافه يسرد بفرنسية المواخير تاريخ الفاتح العربى مضمخا بالصلصة الاستعمارية ، البناء يتداعى ، والاكلمة تدخن هفارا ، والبندير المهلهلة مرخية ، زميلى فى الرحلة يبدى غضبه ، وشعورنا بالزيف يمسك بخناقنا ، لقد تحول البطل العربى الى صورة كرت بوستالية ، اجتذابا وتسلية للسائحين ، صورة المفارقة لحداثة العصر .

« يا اخوانى الجزائريين ، ما اكثر ما عليكم عمله ، او بالأولى اعادته الى اصله ، او فتح الطريق امامه ليكون : . . . »

وحتى جهلى بوجود قبر لعقبة فى بسكرة لايكفينى عذرا عن تخلفى لزيارة اجمل واحات الجزائر ، وقد قرات عنها فى شبابى (اندريه جيد) ، والتى اقام فيها ردحا الموسيقى المجرى العظيم بيلابارطوك ، يدرس موسيقى اهل الواحة ، وقد وضع فيها بحثا قيما اهدتنى الحكومة المجرية صورة فوتوغرافية لصفحاته .

***

بالجزائر ثلاث مدن يجب الا تفوت الزائر مشاهدتها ، بعد العاصمة ، اولها تلمسان ، وآخرها قسنطينة وواسطة العقد بينهما بجاية .

واقليم بأكمله يتعين على السائح ان يرتاده ولو عبورا : منطقة القبائل ، وجبال الاوراس ، فمن هنا انطلقت الشرارة الاولى عام ١٩٥٤ فى ثورة التحرير .

وقضيت لحظات فى بجاية اتناول الغداء ، واذا بصاحب النزل يستاذن فى ان يتحدث الينا ضيف من

ضيوفه ، وهو شخصية من شخصيات حركة التحرير، تبادلنا الحديث من أول وهلة وكأننا أصدقاء ، بل اقرباء . أكرمني وحرص على أن يرافقني بعض الطريق، ويدعوني الى مكانين على شاطىء البحر ، نشرف منهما على « الكورنيش الذهبي » ، لاحظت ان القوم يستقبلون مضيفي باحترام ، أعجبتني فيه اصالته وصراحته . . . وتواضعه ، يتكلم الفرنسية كأهلها .. دون التحرج من القول بأنه لم يتخرج من جامعة ، ولا حتى من ليسيه ، على حد قوله .

يمثل عندي الامل في المستقبل ، وقد كان يجاهد شابا في خمسينات القرن ، وهو اليوم رجل أنضجته التجربة العنيفة . . . هؤلاء هم اساتذة الجيل ، وليس ضروريا أن يحملوا درجات جامعية ليبثوا في شباب الجزائر روحا جديدا . ما أجمل أن يحقق الآباء في تعليم أبنائهم ، وابلاغهم أقصى درجات التخصص مع خلفية عميقة من الثقافة ، ما لم يتح أن يحققوه لانفسهم ، بهذا تنشأ الاجيال التي تحرك التاريخ . . .

رافقني زعيم بجاية بعض الطريق نحو سطيف ... والغروب دان ، وعلى قطع الطريق الى هذه المدينة قبل أن يجن الليل ، فهو طريق جبلي وعر ، وفي سفري من الجزائر الى قسنطينة ، كررت اقتحام الطرق الحلزونية، التي عانيت فيما بين وهران والجزائر ، علام التوبة ؟ الم يقولوا في المثل السائر : « يموت الزمار.. الخ ؟ »

بلغت سطيف في حلكة الليل ، واتخذت الطريق الطوالي الى قسنطينة (حوالي ٢٠٠ كيلومترا) لا الوي على غير سيارة أتبعها ، مع الامل أن لا تخلو بي في الطريق لتقف في محلة أو قرية . فزت بها ، وكان سيرها منتظما (١٠٠ كيلومتر ـ ساعة) ، فيما عدا ما

يقتضيه الحذر عند ظهور ضوء سيارات فى الاتجاه المضاد ، وهذا وحده من اخطار سواقة الليل الحالك ، تابعت السيارة .. كظلها ، أو على خط نورها الاحمر، حتى بلغنا مداخل المدينة ، ثم وسطها ، واستمرت السيارة القائدة حتى دلفت الى حى سكنى متطرف ، ووقفت امام دار خاصة ، فأسرعت الى صاحبها اعتذر له عن مطاردتى المشبوهة ، واشكره على ما اداه لى من خدمة دون علمه ، ولولاه لما شعرت باطمئنان فى طريق الليل وأنا غريب الديار .

كان الرجل كريما ، كعهدى بالجزائريين ، فانزل اصحابه أو أهله ، ثم سألنى عن وجهتى فاخبرته باسم الفندق ، وقادنى اليه خلال معارج المدينة ، وكأنها سكك أبو زيد .

***

قسنطينة عاصمة شرقى الجزائر ، موقعها الطبيعى حصين بحكم احتضان نهر (وادى) الرمل هضبة الموقع.

كانت تسمى « كيرتا » أو سيرتا فى القديم ، تأثرت بحضارة قرطاجة ، وكانت عاصمة « نوميديا » حتى تغلب الرومان على أميرها جوجورتا ، ثم خضعت لبيزنطة . أعاد الامبراطور بناءها وسميت باسمه « قسطنطينة » ، ولكن اهلها ينطقونها « قسنطينة » بسكون القاف تلصق بها السين المفتوحة .

وفى العصر الاسلامى تنازعتها الامارات الاسلامية ، والخلفاء الفاطميون، فبنو زيرى ، فالموحدون ، وانتهت الى حكم الحفصيين فى افريقية (أى تونس) . وفى العصر العثمانى كان يحكمها باى ، نائبا عن داى الجزائر. حاصرها الجيش الفرنسى مرتين ، قبل ان يقتحمها امام مقاومة عنيفة جدا يقودها أحمد باى ، وبرغم سقوطها

عام ١٨٣٧ ، فقد واصل احمد باى جهاده على راس القبائل فى جبال الاوراس ، وصمدوا حتى سنة ١٨٤٨ .

وقصر احمد باى هذا من أجمل قصور المغرب ، وبالمدينة الجامع الكبير ، من عصر الحفصيين ، وجامع سيدى الكتانى ، أو مسجد صلاح باى ، وسيدى الاخضر كلاهما من العصر العثمانى .

وبالمدينة أعمال انشائية فوق أغوار وادى الرمل : كوبرى سيدى راشد ، ثم الكوبرى المعلق الهائل المسمى بسيدى م ، سيد ، طوله ١٦٨ مترا معلق على ارتفاع ١٧٥ مترا ، أنشىء عام ١٩١٢ .

ولاحظت ان خمار المرأة وازارها فى قسنطين وربوعها ـ على خلاف المناطق الاخرى ـ تتميزان باللون الاسود .

***

لن نفهم آثار تلمسان ، ولا يمكن القاء بعض الضوء على بلاد الجزائر الا ان نلم بتاريخ المغربين : الاوسط ، والادنى ، اتماما لما بدأناه من تاريخ المغرب الاقصى .

والآثار الاسلامية الهامة بالجزائر نجدها فى طرفى البلاد الشرقى بقسنطينة وصقعها ، والغربى بتلمسان .

وفضلت أن يجىء هنا مكان هذا الالمام ، وأنا على وشك الانتقال الى البلاد التونسية ، والحديث عن تاريخ الجزائر لايوضحه الا اتصاله بتاريخ المغرب الاقصى من الغرب ، وبتاريخ افريقية (تونس) من الشرق ، ثم ببعض تاريخ البحرية العثمانية وكان بطلها خير الدين باربا روسا ، فهو الذى اتخذ من جونة الجزائر عرينا لاسطول المغامرين المسلمين ضد حركة التجارة المسيحية فى البحر الابيض ، وهو الذى قدم المغرب الاوسط ، والمغرب الادنى هدية لآل عثمان فى استامبول .

خلفية تاريخية لا بدّ منها

« ... ثم كانت ولاية مروان بن الحكم ثم ولي عبد الملك بن مروان ، فاستقام له الناس . واستعمل اخاه عبد العزيز على مصر ، فولى افريقية زهير بن قيس البلوى .. وولي بعده حسان بن النعمان الغساني فغزا ملكة البربر « الكاهنة » فهزمته . فاتى قصورا في حيز برقة ، وعاد الى غزو « الكاهنة » فقتلها وسبى سبيا من البربر ، وبعث به الى عبد العزيز ، فكان ابو محجز الشاعر يقول : لقد حضرنا عند عبد العزيز سبيا من البربر ما رأيت وجوها احسن من وجوههم . »

« فتوح البلدان للامام ابي الحسن البلاذري »

تملكت « الكاهنة » ، من قبيلة الجراوة ، على البربر ، ووصفت بالداهية ولا يعرف لها اسم بعينه ، طارت شهرتها ما بين افريقية وموريتانيا ، هبطت جبال الاوراس لنزال عدوها حسان بن النعمان، وكانت ساعة متأخرة من النهار فلم تقبل على المعركة ، وقضت الليلة فوق سرجها. وفي الصباح وقف فرسان البربر في نصف دائرة تتقدمهم صفوف الهجانة ، وبين اقدام الجمال رماة النبال ، وخلف الجيش احتشدت النساء ، وعتاد الحرب .

جمحت جياد حسان من رائحة الجمال، وانهزم القائد العربى وطورد مرتدا حتى قابس ، وتحصن فى موضع يعرف بقصور حسان . ودارت رحى المعركة فوقع عدد من الاسرى بين يدى « الكاهنة » واذا بها تعيدهم الى صفوف اعدائها ، الا فتى مليحا يدعى خالد بن يزيد من بطون قيس ، راق فى عينى ملكة البربر فتفننت بملاحقه وسمرته وقالت له سأرضعك لتصبح ابنا للكاهنة وأخا لأولادى ، وأجريت مراسم التبنى تبعا لتقاليد البربر (راجع تبنى أمنا الغولة فى حواديتنا) .

كانت الكاهنة تستقبل صباح معركتها الاخيرة بفال سوء ، قائلة : « كلما واجهت المشرق رف منى الطرف نذيرا ، لقد جاء العرب لامتلاك بلادنا » ، وامرت بأبنائها وبالفتى القيسى أن يسلموا الى حسان بن النعمان .

واحتدم القتال بين الجيشين عنيفا داميا ، عقد النصر فيه للمسلمين ولم تطلب الكاهنة النجاة قائلة : اننى اعرف كيف أموت ملكة ، ووقعت فى الأسر، فقطع راسها وألقى بها فى بئر عرف ببئر الكاهنة .

تلك صورة ، أو اسطورة من أساطير البربر حول الفتوحات الاسلامية الاولى بالشمال الافريقى ، ولم يكن يعرف فى ذلك الزمان بأقسامه التى أقامتها الدول الاسلامية فيما بعد ، بل كان على حاله منذ فجر التاريخ . أقام فيه الفينيقيون بعض الثغور ، وتبعهم القرطاجيون فالرومان فالوندال فالبيزنطيون ، وأطلق اليونان على « افريقية » اسم « نوميديا » بمعنى بلاد « القوم الرحل » ، وهم جنس لم تتحقق أصوله الاثنوغرافية على وجه الدقة ، والغالب انه جنس ليبى يصفه علم الاجناس بأنه الجنس « الميدتيرانى» الجنوبى

فى مواجهة الجنس الميـدتيرانى الشمالى .. وكلاهما يمثلان السكان القدامى حول حوض البحر المتوسط .

قامت فى العصور الوسطى ثلاث دول بالمغرب لـكل منها حدود طبيعية :

المغرب الاقصى : من شـواطىء المحيط الاطلسى حتى وادى ملويا ، وحاضرته فاس .

المغرب الاوسـط : ويشـتمل على ارض وهران ، وجونة الجزائر ، وعاصمته تلمسان .

المغرب الادنى : وهو « افريقية » التاريخ الاسـلامى (ونوميديا العالم القديم) ويضم ارض قسنطينة وتونس وبعض ليبيا ، وعاصمته القيروان .

قام بموقع مدينـة الجزائر فى العصر الرومانى بلـد اسـمه « اكوزيوم » وفى القرن العاشر (٩٣٥ م) ، انشأ الامير بلكين (بولجين) بن زيرى فى ذلك الموضع مدينة اطلق عليها اسم « الجزائر » نسبة الى مجموعة جزر صغيرة فى مداخل الجونة الـكبيرة .

وقد دخلت هـذه المدينة فى حكم بنى حماد ، فالموحدين ، فعبد الواد ، فدولة بنى زيادة التى تحكم فى تلمسان .

اما بلاد الجزائر كما تعرف اليوم فلم تحدد تخومها الا عام ١٦١٤ م .

فلنطرق الآن تاريخ المغرب الاوسط والادنى بدءا من دولة بني عبد الواد فى تلمسان (القرون ١٣ الى ١٦ م) ودولة الحفصيين فى افريقية .

بنو عبد الواد من قبيلة زناتة ، استقروا فيها بين وادى ملويا ، غربا والزاب والاوراس شرقا ، فى مطالع القرن الثالث عشر .

شارك بنو عبد الواد قبيلة المغاورة (بطن من زناته) في محاربة العرب من بني هلال وبني سليم ، وهي القبائل العربية المقيمة بمصر ، والتي أطلقها الفاطميون على المغرب لمحاربة فرقة الاباضية في الزاب ، ولتخريب المغرب .

وأقام الموحدون سيطرتهم على بني عبد الواد واستعملوهم لمقاومة بني مرين ، الاسرة الصاعدة التي تهدد دولة الموحدين في المغرب الاقصى ، وكوفيء بنو عبد الواد بأن اقطعوا المغرب الاوسط كما ذكرنا .

ويغموراسن بن زيان هو مؤسس الاسرة الحاكمة في تلمسان ، كان أميا لاينطق بغير لسانه البربري ، ولا شأن للأمية وما اليها أن يكون الرجل عبقرية حربية ، أمضى سنوات حكمه في محاربة العرب الهلالية ، وامتد جهاده الى الاشتباك مع الدولة القوية شرقيه (بني حفص في افريقية) ، والموحدين وبني مرين في المغرب الاقصى .

هاجمه ابو زكريا الحفصي ، واضطره الى الاحتماء بالجبال ، ولكنه عاد الى عاصمته تلمسان بعد عودة أبي زكريا الى افريقية ، باتفاق على أن يدفع الجزية الى الحفصي .

كان المرينيون يركزون حروبهم على قهر الموحدين وازالة ملكهم ، فهم بحاجة الى معونة يغمراسن ، الحريص على امارته بتلمسان ، في مواجهة بني مرين في فاس .

لم يدم السلام طويلا بين بني عبد الواد وبني مرين ، وقامت الحرب بينهما سجالا على طريق تازة ، الممر الخطير مابين فاس والمغرب الاوسط ، وهو الممر الفاصل بين جبال الريف شمالا ، وجبال الاطلس جنوبا .

ترك يغمراسن بن زيان امارة تلمسان قوية الجانب ،

تتمتع برخاء اقتصادى مرده انها ملتقى تجارة البحر الابيض المتوسط ، كما اشتهرت تلمسان بمدارسها واقبال أهل العلم والادب عليها ، وخاصة من الاندلس، وكان على راسهم أبو بكر محمد بن الخطيب ، الذى اقامه يغمراس على رسائله .

بيد ان هذه الدولة الصغيرة المحصورة بين الحفصيين فى افريقية والمرينيين فى المغرب الاقصى لا تنفك فى صراع للحفاظ على استقلالها ، حتى انتهت دولة عبد الواد عام ١٥٥٤ م .

فمن هم الحفصيون ، وما اصلهم ؟

فى مطالع القرن الثالث عشر اتم الموحدون الاستيلاء على ملك المرابطين فى المغرب كله ، ما عدا الجنوب التونسى حيث صمد المرابط ابن غانية الى ان تغلب عليه سلطان الموحدين الناصر بن المنصور ، فعين أبا محمد ابن ابى حفص حاكما على الاقليم .

وحينما حاقت الهزيمة بالموحدين فى الاندلس ، مما أضعف شوكتهم ، استقل ابناء حفص باموروهم فى افريقية ، ويعزو ابن خلدون ذلك الى ان أبا زكريا الحفصى تخلص من سيطرة الموحدين عندما بلغه انهم سمحوا للمصلين باستعمال لغة البربر فى أداء فريضتهم، وغير ذلك مما اعتبره الحفصى مخالفة خطيرة ، بل مروقا

امتد حكم بنى حفص حتى اقليم بجايا بعد زوال ملك الموحدين فالجزائر ، ثم احتلوا تلمسان وفرضوا الجزية على يغموراسن (كما سبق ذكره) بل بسطوا حكمهم على سبته وطنجة ، واعترف بهم سكان بلنسية وشرقى الاندلس ، فكان أبو زكريا الحفصى أقوى حكام الشمال الافريقى ، وقد راسل الملوك والامراء فى اوربا ، وعقد ميثاقا تجاريا مع امبراطور الجرمان فريدريك الثانى ،

آل هوهنشتاوفن ، بطل الحملة الصليبية السادسة ، الذى عقد معاهدة صلح مع الملك الكامل الايوبى ، سلطان مصر ، دامت نحو احد عشر عاما .

توفى أبو زكريا فى عنابة ، وتفككت دولة الحفصيين فى القرن الخامس عشر ،خرجت عنها قسنطينة وبجايا ، ولم تبق لها فى القرن السادس عشر غير تونس ، وكان العرب من قبائل القوب وبنى سليم قد استولوا على بقية البلاد ، مما اضطر معه الحفصيون الى الاستنجاد بالاتراك العثمانيين الحاكمين فى الجزائر ، وكان ذلك ايذانا بدخول تونس فى حكم آل عثمان .

وقبل أن نفصل استيلاء العثمانيين على الجزائر يجدر بنا أن نشير الى حملة الصليبى لويس التاسع على تونس ، ونزول جيشه بضاحيتها « قرطاجة » ، فقد حدثت ودولة بنى حفص فى عزها ، وعاصمتهم تونس قد احتلت مكانة القيروان فى العلوم والآداب والتجارة والصناعة .

ومن الطريف أن يرجع القارىء الى الجزء الثانى من تاريخ ابن خلدون لمراجعة هذه الحادثة التى علق عليها مؤرخ فرنسى مسيحى قائلا : كانت حملة القديس لويس تشهد بجهالة عجيبة لشئون افريقية ، فمع ان الجيش الصليبى المتحصن فى قرطاجة لم يتمكن من دخول معركة واحدة مع المسلمين فقد زعم املاء ارادته عليهم حين اشترط لعقد الصلح بينه وبين الحفصيين . . . أن يتنصر خليفتهم المسلم .

وعلق عبد الرحمن بن خلدون على هذا الشرط الرائع ا بأن يد الله نزلت على رأس « الريدفرانس » لويس بن لويس ، فنفق بالطاعون فى الموضع الذى

انزل به جيشه ، واجلى الحفصى هـذا الجيش مقابل دنانير معدودة .

لقد تغير حال المغرب الاوسط وافريقية فى خلال القرن السادس عشر : احتل الاسبان شواطىء وهران ، فى الوقت الذى كانت شمس بنى عبـد الواد تنحدر الى الغروب ، والحفصيون يعانون سكرات الموت فى افريقية

واهم حـادث فى ذلك القرن كان ظهور الاتراك على الضفاف الجنوبية للبحر المتوسط ، واستيلاؤهم على مصر وبلاد المغرب الادنى والاوسط .

وكان للعثمانيين ــ دولة الخلافة ــ فضل لا ينكر على بلاد المغرب الاوسط ، وهو مدافعة الاسبان الطامعين فى احتلال الثغور الاسلامية .

واذا كان سقوط مصر المملوكية بين براثن العثمانيين غزوا وقهرا واذلالا ، فقد كان اسـتيلاؤهم على تونس والجزائر هدية لطيفة من قرصان مغامر ، تاجر باسلابه وغنائمه مبادلة مع الحكام ، ثم انتهى بضم أسطوله الى الباب العالى ، وكوفىء بأن عينه خاقان البحرين أمير امراء البحر برتبة قبطان (قبودان) باشا .

وهذا المغامر تركى، أو البانى ، ولد بجزيرة لسبوس لأب فخرانى رزق بأربعة أبناء ، عملوا كلهم على مراكب القرصنة ، وهم اليـاس ، واسحق ، وبابا عروج ، وخيرالدين .

أشدهم مغامرة كان بابا عروج ، وقع فى أسر فرسان الصليب أصحاب جزيرة رودس ، وحين أفلت من الاسر لجأ الى شاطىء افريقية ، وجعل من جزيرة « جربة » (فى مواجهـة قابس بالجنوب التونسى) مركز قيـادة لقرصانه ، واغرى الامير الحفصى على اشراكه فى السبايا والغنائم .

لحق به أخوه خير الدين ، وذاعت شهرة ولدى صانع الجزار ، واشاعا الفزع على طول البحر المتوسط وعرضه من جراء المغامرات الجريئة ، وقطعهما الطريق على السفن المسيحية .

واستنجد « شيخ » الجزائر بالشقيقين ليخلصاه من ربقة الاسبان ، وعندما وصل المغامران الى الجزائر وجدا ان الاسبان يحتلون واحدة من الجزر القائمة بمدخل المرفأ الكبير ، ورأى بابا عروج ، بما طبع عليه من انتهاز الفرص والغدر ، أن يتخلص من الشيخ بقتله وأعلن نفسه ملكا على النواحي ومد سيطرته على الشاطىء حتى دخل تلمسان فحوصر فيها ، ثم هرب منها غربا الى وجدة ، حيث أدرك وقتل جزاء وفاقا على غدره .

تولى خير الدين قيادة أسطول القرصنة ودخل الجزائر فاتحا ، وبدأ منها الشهرة التى طبقت آفاق «الفرنجة» تحت اسم ذى اللحية الحمراء (بارباروسا) .

وبضم اسطوله الى اسطنبول ارتقى الى قيادة البحرية العثمانية كما سبقت الاشارة اليه ، وتقدم بأسطوله الى تونس فاحتلها ، وأنهى حكم الحفصيين (١٥٣٤ م)

وغرقلة ملاحة الدول المسيحية فى البحر المتوسط لم يقف أمامها شارلكان يهز رأسه ، فما أن استقر حكمه الامبراطورى بأوربا حتى استدار نحو الجنوب فى حملة فاشلة على الجزائر ، فاتجه بأسطوله الكبير الى قرطاجة ونجح فى انزال عشرين ألفا من عسكره فى المكان الذى احتله لويس التاسع قبل ثلاثمائة عام ، ومن قرطاجة اقتحم « حلق الوادى » لاحتلال تونس ، وتلقى معونة متوقعة من طابور خامس يتألف من الاسرى المسيحيين بداخل المدينة .

عاد خيرالدين الى اسطنبول فى الوقت الذى استرجع الحفصى عرشه تحت الحماية الاسبانية ، مع دفع الجزية للامبراطور ، وقبول جيش يحتل « حلق الوادى » وينزرت والمهدية .

ولم يرض شعب البربر بسلطانهم المتخاذل الذى باعهم من اجل « الكرسى » وعاد العثمانيون فحرروا المهدية وبجايا وتلمسان ، واستعادوا تونس عام ١٥٥٩م بقيادة قبطان باشا أولج على .

ولا تعنينا فى كثير او قليل تفاصيل الحكم العثمانى فى بلاد الجزائر والايالة التونسية ، ولا كيف انتهى الى « باى » فى تونس و « داى » فى الجزائر ، وجدير بنا ان ننسى حكم الفرنسيين فى الجزائر ، وحمايتهم لتونس ومراكش ، فتلك صفحات سود من كتاب القرون الماضية ، وبخاصة القرن التاسع عشر ..

تونس ..
بين رحلتى الشباب والشيخوخة

من كل أقطار رحلتى الاخيرة الى الشمال الافريقى- فزت بأكبر نصيب فى القطر التونسى ، أقمت به شهرا قبل أن أبلغ الثلاثين ، وعدت اليه وقد اجتزت السبعين

سعدت بالاقامة فى تونس مرتين ، ومصدر سعادتى واحد : الاحساس بقرب الوطن .. فى المرة الاولى طالت غربتى عن مصر الى خمس سنوات ، فكان فى سفرى من باريس الى تونس استرواح لمصر ، واستشعار بنسيمها .. وفى المرة الثانية كنت اقترب من نهاية عبورى الطويل ، وقد غادرت باريس الى القاهرة ، عن طريق اسبانيا والشمال الافريقى ، ولم يبق بينى وبين الوطن سوى ليبيا . ولاحظ انك كلما اتجهت مشرقا من المغرب الاقصى ، قربتك اللغة التى تسمع من لهجة المصريين ، لهبوط نسبة اختلاط لغة البربر بالعربية.. واذا كنت فى سائر بلاد المغرب تسلك طريقك مع المتعلمين بالعربية الفصحى ، أو بالفرنسية ، فان صعوبة ـ وربما استحالة ـ فهم الكلام الدارج فى المغرب الاقصى، تخف شيئا فشيئا ، كلما انحدرت من أعالى الجنوب نحو الشاطىء ، أو كلما اتجهت شرقا . فاذا بلغت تونس ، سهل عليك التخاطب بلهجتك المصرية ، وما اسرع ما يتعرفون عليك قائلين : «مصراوى» .. وقد

تستطيع ، الى حد ما ، فهم التونسية الدارجة على الاقل فى الحضر .. ثم انك تحس فى تونس بجو وداعة ، اشبه بوداعة المصريين ، بل وباستعداد لطرقعة النكتة عند التونسيين ، وبقدرة على تذوق الفكاهة .. وظهر ذلك عندما ذهبت الى «شفخانة» السيارات ، استرجع العربة التى حملها البوليس بالرافعة (الونش) الى هناك ، لوقوفها فى مكان مسموح به فى وقت الازدحام ؛ محظور بعد ساعة معينة يجهلها السائح العابر طبعا .. تبادلت القفش مع رئيس محبس السيارات المخالفة ، وكان الابتسام بين الطرفين بديلا عن دفع الغرامة ..

كنت فى اقامتى الاولى عام ١٩٣٠ ، أعيش على مقربة من المعهد « الاقيانوغرافى » فى سلامبو ، مع فرنسيين فى الفندق وفرنسيين فى المعمل الذى اقضى به سحابه اليوم ، فاذا انتهيت من عملى مبكرا ، خرجت الى آثار قرطاجة البونيقية ــ وهى قليلة ، بعد أن خربها سبيون الافريقى ، ومن جاء بعد الرومان من الغزاة والفاتحين ــ والآثار الرومانية ، وهى كثيرة لا فى قرطاجة وحدها بل فى غير قليل من الاصقاع التونسية ، وقد أزور متحف « الآباء البيض » ، وهم اعضاء رهبنة اسسها الكردينال لافيجرى ، المبشر المشهور ، وألبس رهبانها مسوحا ابيض ، مستوحيا جلابة المغاربة ، وانعلهم البلغة ، كنت أبادل بعضهم الحديث فى لقائى معهم بالمتحف أو وسط الآثار .

ويوم الاحد كنت اقضى النهار بطوله ، وبعض الليل ، فى تونس المدينة العتيقة ، أتناول طعامى فى مطاعمها البلدية ، وأستمع الى الفونوغراف « أبو نفير نحاس اصفر » ، وسهرت ذات ليلة فى مسرح البلدية بالمدينة الاوربية (خارج السور) فأعادتنى السهرة الى مطالع

مرأهـقتى ، كانت الرواية « ثارات العرب » ، وهى ترجمة وتعريب لرواية فكتور هوجو « البورجراف » بقلم نجيب حداد ، وكان التمثيل تهويشا وتلويحا بالايدى والاذرع ، وجئيرا خطابيا ، والجمهور تفوح منه روائح العنبر ، والطرابيش الحمراء المطربقة (وهى الشاشية) تتدلى منها أزرار زرقاء وسوداء تبلغ الاكتاف . وعندما رأيت فى تجوالى عددا من حمامات السوق ، تاقت نفسى الى دخول واحد منها ، ولم أك دخلت حمام السوق سوى مرة واحدة فى الطفولة ، اتماما لتقاليد الختان .

والتقيت فى الحمام بالشباب التونسى من طلاب جامع الزيتونة ، فتحدثوا الى بما يتوقعون من اضطرابات بمناسبة افتتاح « المؤتمر الافخارستى » ، فنزلت أشاهد موكب القاصد الرسولى يستقبله المقيم العام الفرنسى عند حلق الوادى ، ويركب الى يساره ، نافشا منفوخا كالديك الرومى .

ولاحظت ان الامن وكلت به فرقة من السنغاليين السود ، سيطرت على المدينة تماما ، وبلغنى ان مظاهرات سارت تهتف داخل المدينة العتيقة ، وانتهت بسلام .

واخبرنى الكتبى الذى كنت أجلس بمكتبته أمام جامع الزيتونة ، فى دعابة تونسية ، ان قطة حاولت عبور طريق الموكب ، فمنعها الحارس السنغالى .. بكنافة بندقيته (ونسيت الاصطلاح التونسى تعبيرا عن كعب البندقية) .

اقتنيت من مكتبة صاحبى دواوين أشعار تونسية ، والطبعة الاولى للجزء الاول من « الايام » لطه حسين ، وطبعة حديثة لقصة محمد حسين هيكل « زينب » ، وكتابا أعتز به ـ على الرغم من اصابته الشديدة

بقارضة الورق ـ هو « نخبة الزائر فى مآثر الامير عبد القادر ، وأخبار الجزائر » تاليف ابنه محمد عبد القادر الحسنى (مطبعة غرزوزى وجاوبش ، الاسكندرية ١٩٠٣) .

ولاحظت فى مكتبة صاحبى التونسى ان مجلاتنا المصورة (١٩٣٠) كانت رائجة ، ربما لمادتها ، وقطعا لما بها من صور لمتاع الحس والبصر ، وكان الكتبى يثير رغبة الزبائن بالاشارة الى ما بها من «صور نساء» : قال هذا لجزائرى قحف مستغلق اللغة ، حاولت أن اتفهم منه شيئا عن بلاده فتلعثم « عيضة » ، ولم يشجعنى الكتبى على المضى فى الحديث ، ورثى لحال أولئك الفلابة الذين أضاعهم الاستعمار .

سافرت بعد انتهاء عملى الى القيروان فقضيت فيها يومين بليلة ، زرت أهم مساجدها على مهل ، وطالعت بعض ما تيسر عن الفن المغربى ، ودعانى تاجر سجاد على العشاء بمنزله مع بعض أصحابه ، وسهرنا فى مقهى به تخت وغناء .. ورجل يرقص فى لبسة الغوانى ، ذكرنى بفؤاد الـ . . . رأيته فى صغرى يقدم فاصلا من رقص البطن بالسيرك الوطنى فى مولد « أم العواجز » .

وطبيعى ان أسعد بزيارتى الثانية لا لمجرد استقلال البلد الشقيق فحسب ، بل لروعة ما شاهدت من تجديد ، وما أحسست به من روح طموح : حارب الاستعمار ولم يتنكر لحضارة الغرب ، مثلما كنا بمصر أيام ثورة عام ١٩١٩ وما بعدها ، حيثما كنا نقاوم المستعمر البريطانى ، دون أن نتخذ من ذلك ذريعة لكره الحضارة الاوربية ، كنا نشعر بحاجة مزدوجة اليها : مؤازرة الدول الغربية لنا فى قضيتنا العادلة ، وضرورة استئلافنا لحضارتها ، فهى سلاحنا الامضى فى محاربة

المستعمر ، وهى درعنا لنواكب الحضارة المعاصرة فى سلام .

تونس ، والمغرب كله ، اقرب منا الى الحضارة الاوربية ، ولا اعنى القرب الجغرافى وحده ، وانما الاتصال المعنوى كذلك ، نعم ان الطائرات طوعت السفر الى اوربا وغيرها ، ولكن ما لايدرك لاول وهلة هو ان سفر خمس ساعات فى الطائرة من ناحية التكاليف يعادل سفر ثلاثة او اربعة ايام بالبحر والقطار ، وما بين تونس وباريس ساعتان بالطائرة ، وقريب من هذا ما بين الجزائر والمغرب الاقصى والبر الاوربى ، والطريق ذو اتجاهين ، فما أيسر على طلبة العلم فى المغرب من بلوغ هدفهم فى دراسة أصول الحضارة ، وعلى السائح الاوربى ، وحتى الامريكى الذى يقضى اجازته فى اوربا ، من أن يخطف الى بلاد المغرب .

ولكى نفهم ما حدث من تطور بعيد المدى فى الاستعداد السياحى ببلاد المغرب ، نذكر ما حدث عقب الحرب الماضية . اجتمع المهتمون بتيسير السياحة واستغلال مواردها ، واتجهوا الى الشمال الافريقى كمرفق سياحى هام ، ووضعوا خططهم الاستثمارية وشيكا ، وقد لاقوا من حكومات المغرب استعدادا وقبولا ، وشاركت هذه الحكومات مشاركة فعالة فى انشاء واعداد كل ما من شانه خلق صناعة سياحية نافقة . ويجب أن نشهد لمن حملوا لواء هذا التطور من رجال المغرب بالكفاءة الممتازة ، وسرعة فى الانجاز ، وشجاعة فى مواجهة الحضارة بصدر رحب وعقل متفتح

وتونس ، بالنظر لموقعها المتوسط فوق ذلك الراس الممتد فى اتجاه اوربا ، كانت طوال تاريخها مركزا هاما

للتجارة والمبادلات الاخرى بين الشرق والغرب والشمال والجنوب .

الجديد على بتونس ، وقد التقيت فيها باشقاء اعزاء للمرة الثانية ، هو انني رايتهم ينعمون بالحرية والسلام ، ويخطون خطى المطمئن الواثق نحو التطور الحضارى الى أقصاه ، مسلحين بمضاء العزيمة ، وتخفف من أثقال الماضى ، دون أن يضعف ذلك من حفاظهم على تراثهم الاسلامى ، وهو عظيم فى ثرائه واصالته ، وآثارهم البونيقية والرومانية . انظر مايقوله تقرير قدم الى المؤتمر الثالث للمدن العربية عام ١٩٧١ ، بعنوان « تونس ، المدينة العتيقة » :

« ان عملية التجديد العمرانى التى يجب القيام بها ، ينبغى أن تكون أولا عملية احياء التراث ، وثانيا عملية تكسب المنطقة وظيفة جديدة ، والمهم هو اعادة بناء حى ، يكون مثاليا بمساحته وموقعه ونوع نشاطه الاقتصادى والثقافى للمدينة العتيقة فى المستقبل ، وهو مثالى بمعنى أن يؤسس بكيفية تساعدنا على ايجاد الحلول المعاصرة التى تتصل بموارد ماضية ، وبتداخل محكم للمساكن والتجهيزات العمومية والخصوصية فى الميدان الاقتصادى والمجال الثقافى » .

وفى موضع آخر من التقرير : « ونحن نعتبر ان التغيير أو الاتلاف بجهالة ، جريمة ضد التراث الثقافى القومى ، ونطالب السلطات النظر فى اتخاذ الاجراءات اللازمة ، كما نعتبر ان الدفاع عن التراث الثقافى أمر بالغ الاهمية » .

وبعده : « ويعمل الآن مختلف الاختصاصيين بارتباط وثيق مع أعضاء صيانة المدينة ، وتعاون خاص بين هذه الجمعية والمعهد القومى للآثار والفنون .

« هذا ، ومعالجة مشروع تونس ـ قرطاج بالتعاون مع اليونسكو ، دليل على العناية العالمية التى يختص بها تراث المعالم التاريخية بتونس ، وتلك العناية تزداد أهمية بوجود حضارة من أقدم الحضارات بالبحر الابيض المتوسط فى قرطاج على بعد بضع كيلومترات من مدينة تونس البلد الاسلامى التقليدى المحافظ على سلامته الى يومنا هذا » .

والتونسيون لم يتمكن الاستعمار الاوربى من العبث بامتلاكهم للفتهم الشريفة ، كما لم يعبث عابث بعد استقلالهم بتمكنهم من اللغة الفرنسية تمكنا جديرا بالاعجاب .

لم ألبث طويلا فى القطر التونسى بعد زيارة العاصمة ؛ بدأت منها طريق العودة الى الوطن مجتازا من الشمال الى الجنوب ثم الى الشرق حتى الحدود الليبية : يومين فى القيروان ويوما فى سوسة ويوما فى صفاقس، ويومين فى قابس .

كم شعرت بانشراح وأنا أشاهد أعمال الاصلاح والترميم واعادة الرونق الى جامعين من أهم الجوامع فى العالم الاسلامى : الزيتونة بتونس ، وسيدى عقبة بالقيروان .

وكلام معاد أن أزجى الثناء العاطر على الطرق السياحية بكافة بلاد المغرب ، هذه شرايين الحياة فى البلد الناهض . ذكرنى ما شهدت من تقدم سياحى بتلك البلاد الشقيقة ما سمعت بمدينة اكس ـ ليه ـ بان عام ١٩٤٦ (أى بعد نحو عامين من تحرير فرنسا) ، وقد أبديت اعجابى بالتجديد الفخم فى أجمل مدن المياه الفرنسية .

اجتمع الخبراء ووضعوا خطة اعادة البلاد الى رونقها

ونشاطها الصناعى والتجارى (لم تكن فرنسا بحاجة الى تخطيط ثقافى ، فالثقافة للشعب الفرنسى هى الماء والهواء فى تخطيط الدكتور طه حسين للتعليم فى مصر) . وجاءت السياحة على رأس « الصناعات » فى كشف الاولويات .

ابديت دهشتى من كلمة « الصناعة » (اندوستري) وصفا للسياحة ، نعم ان الكلمة الفرنسية تتسع لمعنى المهارة ، والمهنة ، والنشاط ، وتحويل المواد الاولية الى انتاج الثروة ، واذا قلنا الصناعات الزراعية ، واليدوية ، فلماذا لا نقول الصناعة الفندقية ، و « الصناعة السياحية ؟ »

واضاف محدثى الفرنسى ، وهو مدير اكبر فنادق اكس : عندما تقف البلاد على اقدامها سياحيا تنفق تجارتها ، وتزدهر صناعاتها وكافة مرافقها ، من المتحف الى الملهى ، ومن المواصلات البحرية والهوائية الى المواصلات البرية ، ومن الفنادق والبنسيونات الى مدن المياه المعدنية ، والاماكن الاثرية ، ومن دور الكتب الى المكتبات واكشاك الصحف . . . الخ .

ويروق لى أن أردد على مسمع اهل بلادى أن تطوير بلاد المغرب ، وبخاصة : تونس والمغرب الاقصى، وضعها فى مقدمة البلاد السياحية فى العالم .

وان تأخر بلادى فى المرفق السياحى يساعد عليه المظهر الزرى للكثير من طرقاتها وشوارعها ، ولغير قليل من معالمها السياحية ، وخاصة الآثار الاسلامية والقبطية ، التى يشتملها اطار من القبح والقذارة والاهمال ، الى درجة تجعل الوصول الى بعضها حماما من التراب ، وسط كيمان القمامة تنشر عبق العفونة ، ولقد سمعت بأن بين ظهرانينا من يصد السائح عن زيارة

مقابر المماليك بالعباسية (مقابر الخلفاء فى الاصطلاح السياحى) ، فمن ذا الذى يعبر الى تحفة قايتباى الرائعة ، أو مقبرة اينال ، ومدرسة برقوق ، دون أن يدفع الثمن تقززا وقرفا من الطريق اليها .

هذا كلام قاس لا تستحقه والله بلاد الخير والعطاء والسماحة ، أم الحضارات ، منشئة اغلى واثمن الآثار القديمة : فرعونية وقبطية واسلامية .

والعجيب أن تفكيرنا السياحى السقيم عندما حاول التطور عقب الحرب العالمية الثانية بدأ من تخيل مريض، الا وهو : ان السائح بحاجة الى اللهو والحظ والدعارة بعد يوم مرهق من ارتياد الاماكن الاثرية (كمن يخرج بعد الاستماع الى أوبرا « دون جوفانى » لموزار، لينهى سهرته فى ماخور) ، وان الواجب اعداد الملاهى الليلية ، بنجومها راقصات البطن والارداف .

وكان من اثر هذا التفكير المفلوك ، مفلوت العيار، أن طريق الحجيج الفنى الى الاهرام وابو الهول ومعابد ومقابر سقارة ، فى طريقه حتما الى ان يعرف « ببرودوى » قاهرة المعز والدولة المملوكية العظمى .

القيروان .. أم المغرب الرءوم

فى منتصف مارس عام ١٩٣٢ ، اقام القطر التونسى احتفالا بمرور ثلاثة عشر قرنا على تأسيس مدينة القيروان .

وفى احتفالات مولد النبى صلى الله عليه وسلم عام (١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٨ م) ارتقى الرئيس الحبيب بورقيبة المنبر الخشبى العتيق ، القائم الى يمين المحراب بجامع سيدى عقبة منذ اسرة بنى الاغلب ، والقى خطابا ضافيا ، جمع فيه بين القيروان والمغرب والعروبة ورسالة الاسلام وتحرير الاوطان .

وجاءت فى الخطاب هذه الفقرة : « القيروان مدينة ولدت فيها روح المغرب العربى الكبير ، فحلمت بالجزائر وتلمسان وفاس ، ثم حملت بها ، ثم تمخضت عنها . . . القيروان أم رءوم للمغرب العربى كله » .

اتجه عمرو بن العاص ، بعد الفراغ من فتح مصر ، الى برقة ففتحها فى العام الثانى والعشرين من الهجرة ، وكان عقبة بن نافع الفهرى واحدا من قواد جيش عمرو ، فوجهه لفتح زويلة ، واقامه حاكما عليها .

وبعد استقرار الحكم الاموى ، وجه عمرو ـ فى ولايته الاخيرة لمصر ـ معاوية بن حديج لفتح افريقية (أى القطر التونسى مع بعض أرض طرابلس شرقا ،

وقسنطينة غربا) ، فقام ابن حديج بثلاث غزوات ، قاد الثالثة منها عقبة بن نافع (٥٠ هـ - ٦٧١ م) وكان العزم هذه المرة تثبيت حكم الخلافة الاسلامية فى افريقية ؛ وانشاء حاضرة للمسلمين بالمغرب .

كان جيش عقبة يتألف من نحو عشرة آلاف مقاتل، بينهم عدد كبير من البربر الذين اسلموا ، وعدد من مشاهير التابعين (روى ان كان فيهم ثمانية عشر رجلا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم) ، اخترق الجيش فزان ، وفتح غدامس ، واتجه شمالا ، حتى بلغ موضعا وسطا بين الشاطىء وعلى مبعدة منه ليأمن غارات الروم من البحر ، وبين مرتفعات وصحارى الجنوب وقاية لجيشه من تجريدات البربر(غيرالمسلمين) اقام عقبة فيه اولى المدن الاسلامية بالمغرب ، بعد ما ركز رمحه فى ذلك الموضع وقال : هذا قيروانكم .

والقيروان فى معناها أيام الفتوح : بيت السلاح ، فيقول ابن عبد الحكم عن غزوة عبد الله بن سعد بن ابى سرح لافريقية : ورجع عبد الله الى مصر « ولم يول عليهم أحدا ، ولم يتخذ بها قيروانا » ..

أمر عقبة ببناء المسجد الجامع ، فدار للامارة ، وبنى الناس دورهم حول الجامع واستمرت حركة البناء والعمران فى نشاط كبير . . . « وشرع فى تنظيم الدواوين بالعاصمة الجديدة ، فرغم حب عقبة للفتوحات ولساحة الوغى ، فانه بقى ثلاث سنوات فى القيروان ، كرس فيها جهوده لبناء المدينة ، ليخرج متجها نحو شواطىء المحيط الاطلسى » .

الدكتور الحبيب الجنحانى : «القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية فى المغرب العربى» . تونس ١٩٦٨.

كانت حياتها الاولى صعبة من جراء عداء البربر بزعامة كسيلة البرنسى شيخ قبيلة الاوربية من جبال اوراس ، وكسيلة هو الذى نصب كمينا لعقبة فهزم جيش القائد العربى فى عودته من شواطىء البحر المحيط فى موضع قريب من واحة بسكره واستشهد عقبة ودفن حيث قتل (٦٢ هـ - ٦٨٢ م) .

استولى كسيلة على القيروان ، وارتد الجيش الاسلامى الى برقة ، ورابط فيها .

وتقوم حملة عربية جديدة فى حكم عبد الملك بن مروان ، يقودها زهير بن قيس البلوى ، تنتصر على البربر ، ويسقط زعيم البربر قتيلا . ثم يستشهد زهير ببرقه فى طريق عودة الجيش المنتصر ، وكان لمقتله فى دمشق وقع شديد ، مثلما كان لاستشهاد عقبة بن نافع .

ويولى عبد الملك بن مروان قيادة جيش عرمرم لحسان ابن النعمان الغسانى ، ربما كان اكبر جحفل وجهه المشرق لفتوح المغرب ، وهو الجيش الذى قضى على داهية البربر المعروفة « بالكاهنة » ، وكان نفوذها يمتد من طرابلس حتى طنجة .

واستتب الحكم الاموى لاول مرة فى افريقية ، حين اقتحم حسان مدينة « قرطاج » البيزنطية فهدمها ، ثم أسس بمحلة على مقربة منها تعرف « بترشيش » مدينة تونس .

أما القيروان ، فقد اتسع عمرانها ، وغدت حاضرة عظيمة لدول الاغالبة والفواطم والصنهاجة (بنى زيرى) وقد بلغ من سؤددها ان امتد نفوذها وحكمها الى جنوبى فرنسا ، وبعض جزر البحر المتوسط ، وحتى بعض مناطق افريقيا السوداء .

بلغت القيروان أوجها فى أسرة بنى الاغلب (القرن

التاسع الميلادى) ، وكان قيام هذه الاسرة نقطة تحول فى تاريخ المغرب ، اذ حقق استقلاله عن الخلافة فى المشرق ، والواقع ان هذه الخلافة ، بعد ولاية موسى ابن نصير ، وبعد فتح الاندلس ، لم يتعد دورها ايفاد الولاة ، وتقبل الهدايا والغنائم (ربما كان اهمها الجوارى الحسان) ، واستمرار رجال المغرب الرسميين لبس السواد ، صورة ولاء للعباسيين .

ثم لم يعد للمغرب حاجة الى الولاة ، بعد ان انتشر الاسلام وعم قبائل البربر ، وهم قوم اعزة ، لا يقبلون ضيم الولاة ، ولا عسف جيش عربى محتل .

ولد مؤسس دولة الاغالبة ابراهيم بن الاغلب بن سالم ابن عقال التميمى بالمشرق ، وقدم على المغرب صغيرا مع أسرته ، وتولى فيما بعد امارة الزاب ووصلت الى هارون الرشيد اخبار طيبة عن ولايته ، فما ان طلب ابراهيم ولاية افريقية ، حتى اجابه الرشيد وارسل اليه عهد الولاية عام (١٨٤ هـ — ٨٠٠ م) وابراهيم هو منشىء العباسية دارا للحكم على مبعدة غلوة من القيروان .

وابراهيم ، فيما وصفه ابن عذارى (البيان المغرب) كان فقيها أديبا شاعرا وخطيبا ، الى سلامة فى الراى وبأس فى الحرب .

توالى حكم الاغالبة نيفا ومائة عام ، وكان ابراهيم احسنهم سيرة وارأفهم بالرعية ، نشبت الثورات فى عهده ، فكان يخمدها بالسياسة ، لا بالحسام .

كما كان زيادة الله الاول المعهم شخصية ، مع ميل الى العسف والعنف مما أثار عليه قواد الجيش وعماله فى بعض المناطق ، ولكنه صمد فى الحكم سبعة وعشرين عاما ، ودافع عن استقلال افريقية ، ورفض تدخل

المـأمون عندما امره بالدعاء لعبد الله بن طـاهر على منابره .

وزيادة الله هو الآمر بفتح صقلية ، وقد اسند قيادة الجيش الفـاتح الى قاضى القيروان العلامة اسـد بن الفرات ـ وقد بلغ السبعين من عمره ـ فكان القـائد العالم بفن القيادة العسكرية ، كما كان العمدة فى علوم الدين .

ومن مآثر زيادة الله الاول ، توليـة القضـاء للامام سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخى ، المولود بالقيروان ، ومؤلف المدونة التى كانت اول عهـد المذهب المالـكى بطريقة الاستقراء والاستيضاح ، املاها دروسا بجامع عقبة ، ويرجع الى سحنون الفضل فى نشر مذهب الامام مالك بالمغرب ، وهو المذهب السائد الى اليوم هناك .

تمنع سحنون فى قبول منصب القضـاء تحرجا من تدخل الامير ، ولـكن زيادة الله تعهـد له باطلاق يده على اهل بيته واسرته وحاشيته ، بله الرعية .

وكان الامير ابوابراهيم احمد الاغلبى مولعا بالعمارة ، فزاد فى بناء جامع سـيدى عقبة ، وأقام الحصـون والرباطات فى الثغور وحصنها بالاسوار .

وقصـارى القول ، كان عصر بنى الاغلب ، ازهى عصور افريقية وحاضرتها الـكبرى ، وقد انشئت فيها جامعة تحمل اسم « بيت الحكمة » ، كما قامت العمارة البحرية التى يحسب حسابها وسط البحر الابيض ، واقيمت المراجل (الصـهاريج) والخزانات واسـوار العيون لنقل الماء (وهى « الحنايا » فى لغة المغرب) .

وانتهى حكم بنى الاغلب عنـد ظهور الشيعة وعجز زيادة الله الثالث ، آخر امرائهم ، عن صـد هجوم جيشهم المؤلف من قبائل كتامة (البربرية) .

وصل أبو عبد الله الشيعى من المشرق ، زاعما الانتساب الى الامام على وفاطمة الزهراء ، وأقام بين ظهرانى كتامة معلما للصبية ، وناشرا لمذهبه ، ثم أوفد جماعة من كتامة لدعوة المهدى أبى عبيد الى المغرب ، وقد وصل المهدى واستقبل بحفاوة ، واجتمع بفقهاء القيروان وامرهم بالدعوة له فى الجمع والاعياد .

وحينما استتب الامر للمهدى ، نكث أبو عبد الله بعهده ، فلاقى جزاءه مقتولا .. ووجه المهدى أكثر من حملة على مصر دون أن يفلح فى فتحها ، انما قيض لحفيده أبى تميم معد ، الملقب بالمعز لدين الله أن يحشد جيشا كبيرا عقد لواءه لجوهر الصقلى سنة ٣٥١هـ فيفتح مصر ، ويؤسس القاهرة استعدادا لاستقبال المعز وأهله ، وقد دخل أبو تميم معد وأمامه موكب من رفات أجداده .

وكان خروج المعز الى مصر نذيرا بانتهاء حكم الفاطميين فى المغرب ، فقد تولى الحكم الصنهاجيون من بنى زيرى بقيادة راسهم أبى الفتوح يلكين (بولوجين) يوسف ، وأعظم رجال هذه الاسرة البربرية هو أبو الفتوح المنصور بن بولوجين ، وقد أثر عنه قوله : كان ابى وجدى يأخذان الناس بالسيف ، وآخذهم بالحسنى والاحسان .

ولم تدم دولة بنى زيرى طويلا ؛ بسبب آخر امرائها المعز بن باديس ، وقد نبذ الدعاء للخليفة الفاطمى ، وبايع بنى العباسى ، ونادى بمذهب مالك .

فدعا المستنصر بالله الفاطمى القبائل العربية رباح وزغبة المقيمين بصعيد مصر للمسير الى افريقية قائلا لهم : « سرحتكم لجواز النيل ، واعطيتكم ما يملكه ابن باديس العبد الآبق » ، وكانت لوزيره أبى الحسن

اليازورى كلمة فى ابن باديس الصنهاجى : « الا تعجبون من صبى بربرى مغربى يريد أن يخدع شيخا عربيا .. والله لارمينه بجيش لا أتحمل فيه مشقة » .

ولما رأت قبائل رباح وزغبة ان المراعى كثيرة فى برقة دون رعاة او أغنام ، ارسلت الى القبائل الاخرى بصعيد مصر تدعوها ، فزحف العرب الهلاليه وبنو سليم فى اعداد كالجراد ، على طرابلس ، فالجنوب التونسى ، يحرقون ويهدمون ويقتلون كل من يعترضهم ، واستولوا على اغلب مدن افريقية . وقضوا على حضارة القيروان ، وأبادوا من لم يهرب من اهلهـا الى الثغور ، وحطموا صناعاتها التقليدية ونهبوا متاجرها وفنادقها (وكالاتها) واعلاقها .

وبذلك انتهى سؤدد القيروان ، وخاصة بعد انتقال الحكم الى تونس .

***

كان احساسى عندما زرت القيروان عام ١٩٣٠ ، انها بلد اخنى عليه الدهر وانها لولا صـــــناعة الزرابى (ويطلقونها على افخر أنواع سجادهم) ، ولولا جامع عقبـة بن نافع ، سيد جوامع المغرب وما يحيطه من مزارات وزوايا ومساجد أثرية دينا وفنا ، لغابت المدينة المجيدة وانطوت فى دوائر الحدثان .

والقيروان الحديثة كما رأيتها فى رحلة عام ١٩٧١ ، اتسعت خارج السور المحيط بالمدينة العتيقة ، يدلف الزائر الى هذه من باب الشهداء الى نهج على بلهوان ، يجوب دروبها ومعابرها الضيقة وأسواقها المغطاة (سوق العطارين ، وسوق السكاجين .. الخ) ، وينتقل بين مزاراتها حتى يبلغ مرتقى الفن المغربى فى مطالعه بالجامع الكبير .

اكثر المدن التونسية ألتى عرفتها جودا وسماحة ، كانت ايام الاحتلال الفرنسى اشدها حرصا على دينها ولغتها ، حكى لى أصحابى عام ١٩٣٠ فصة قيروانى واحد رضى بان يتحول مواطنا فرنسيا ، فكان منبوذا من الجميع ، وتوفى قبل زيارتى بزمن قصير ، فلم يشيع جنازته متبع ، ولا رضى حانوتى بحمل نعشه ، ولا فقيه بالقراءه عليه ، واضطر المراقب او المقيم الفرنسى الى تكليف بعض رجال الجيش المحتل من المسلمين (من غير المغاربة) أن يقوموا باجراءات جنازته ومواراته التراب .

خمسمائة أسرة تعمل نساؤها فى نسيج السجاد بأنواعه على نحو ألفى نول ، مدينة هادئة تشعرك بطيب منبتها ، استقبلتنى شابا ، برحابة صدر وكرم حين نزلت بفندقها الوحيد ، وكان بدائيا ، أشبه بفنادق الكوكب الزينبى ، والمشهد الحسينى ، أما فى المرة الاخيرة فقد استقبلنى فندقها الجديد ذو الستين حجرة بحماماتها ، ومعرضها الدائم لتجارة « الزرابى » ، وحديقة لم تبلغ بعد درجة « الفناء » ، ولدارة تمثل اللطف والادب والحضارة .

هذه هى المدينة الاسلامية العريقة التى وصفها رئيس الجمهورية التونسية فى خطابه عام ١٩٥٨ ، بأن « روح المغرب العربى ولدت فيها » ، أشهر مقدساتها جامع سيدى عقبة ، أقدم وأوسع وأول جامع انشىء فى المغرب ، صومعته (مئذنته) النموذج الاول للصومعات المغربية والاندلسية ، ان بذتها « الكتبية » و « برج حسان » و « الخيرالدا » رشاقة ورقة وفنا ، فقد امتازت منارة القيروان عليها بالعتاقة والرسوخ والضخامة العابسة ، ترتفع طوابقها الثلاثة المربعة الى

نيف وثلاثين مترا ، بارتفاع ١٩ للطابق الاول ، وخمسة للطابق الثانى ، وثمانية امتار للطابق الثالث ، يتضايق كل طابق عن سابقه ، أفاريز كل منها تشبه أسنان الاسوار (فى المساجد والرباطات والقصبات) والنسبة بين ارتفاع القاعدة الفسيحة ، واستدقاق الطابق الاعلى تضفى على هذه الصومعة مظهر القوة والجلال ، بينما القبة المضلعة الصغيرة التى تغطى الطابق الاعلى ذات أثر سحرى فى تخفيف صرامة هذه المئذنة المشهورة

ابعاد الجامع نحو السبعين مترا فى العرض والمائة والعشرين فى الطول ، صحنه الواسع مكشوف ، وتعلو بيت الصلاة المسقوف خمس قباب مضلعة ، أهمها واجملها القبة فوق المحراب ، موقعها وصنعتها من خصائص الفن المغربى بتونس ، تتحول من الشكل المربع فى قاعدتها ، الى الاستدارة بواسطة تجويفات على شكل اصداف المحار ، وتحمل رقبة القبة ذات النوافذ والقبة مضلعة من الداخل والخارج ، مظهرها الخارجى اشبه باضلاع القاوون (السنطاوى) .

يقوم بيت الصلاة على اساطين منقولة من المعابد القديمة ، ينيف عددها على المائة ، تعلوها باكيات ، ويتعامد على ممراتها رواق القبلة ، أى ايوان المحراب الذى تزين جانبيه الواح الزليج ذى البريق المعدنى (بلاطات القاشانى) ، استجلبت من بغداد ، أو هى من صنع مغربى درس فى بغداد ، أما قاع المحراب فتحليه الواح من المرمر ، كل منها يختلف نقشه عن اخوانه .

والمنبر تحفة رائعة من خشب الساج الهندى ، موضعه الى يمين المحراب ، أنشأه ابراهيم بن الاغلب ، شاهدته فى زيارتى الاخيرة منقولا من مكانه ، وموضوعا فى ركن أمين بسبب ما يجرى فى سقف المسجد من

ترميم واصلاحات هامة .

والمسجد الجدير بالزيارة بعد الجامع الكبير ، هو المعروف بجامع ثلاثة البيبان ، انشاه الفقيه محمد بن حيزون المعافرى المهاجر من قرطبة (٢٥٢ هـ ـ ٨٦٦ م) ثم زاوية سيدى الصاحب ،وهو أبو زمعة البلوى ، من الصحابة المتوفى سنة ٣٤ من الهجرة ، دفن بالقيروان، ومعه شعرات من شعر الرسول ، لا يعرف تاريخ انشاء مقامه القديم (القرن الثالث الهجرى) ، انما اقام الزاوية عام ١٠٨٥ هـ حمودة باشا المرادى .

عند أقدام الوطن الجريح

بم أصف شعورى ، وقد اجتزت الحدود التونسية وانطلقت فى الفضاء والفراغ الليبى الرائع ؟

ليلتان في طرابلس وليلة فى كل من سيرتا وطبرق .. لم تكن محلة سيرتا غير محط لتقسمة الطريق الطويل بين طرابلس وبنغازى (٤٧٥ + ٥٧٠ ك . م) ، وليلتين ببنغازى ، لنتمكن من زيارة طولوميتا وقيرينة (شحات) أهم أثرين قديمين فى برقة ، تحدثت عنهما فى فصل سابق ، وليلة فى طبرق ، تأهبا لاجتياز الحدود بين برج مساعد والسلوم .. ومن هذه رأسا الى مرسى مطروح

كنت أنهب الطريق نهب الجواد العائد الى طوالته ، بلفت سرعات ما أظننى عرفتها على الارض من قبل ، شجعتنى عليها طرق ليبيا العجيبة : شريط اسفلتى وسط رمال تمتد الى مدى البصر ، لم يفترشها البساط السندسى الا فى « الجبل الاخضر » .

معرفتى بتاريخ ليبيا الاسلامى ضئيلة، بعض معلومات عن الفتح العربى ورد ذكرها فى بعض فصول هذه الرحلة . امتد ملك الموحدين اليها ، واتسعت رقعة سؤددهم فى حكم عبد المؤمن ، حتى بلغوا حدود مصر ، وكان من الجائز أن يحتلوها ، لولا دولة البطل الاسلامى صلاح الدين ، الذى قضى ربع القرن لا يكاد ينزل عن فرسه .

بيد انى فى طرابلس ، وأمام درنة ، وفى بنغازى ، كنت استعيد ذكرياتى من سنوات الوعى الاولى وانا طالب بالمرحلة الابتدائية (١٩١٢) ، عندما نزل الطليان بشواطىء ليبيا ، كنا نسمع فى ذلك الوقت بحرب الاتراك ، دفاعا عن ملكهم فى طرابلس الغرب وبرقة ، وببطولة عزيز المصرى ، وكان ضابطا فى الجيش العثمانى حينذاك ، لم تكن آخر مرة فى حياتى أسمع فيها الطبل الصحفى والزمر الاعلامى عن انتصار العثمانيين على الطليان ، فأفرح مع الفارحين .

ثم يتضح لنا جميعا بأن العدو استولى على « بلاد الغرب » ، واخرج عنها جيوش البادشاه ، ظل الله على الارض ، وحتى الحدث الذى كنت لم يفقه حكاية ظل الله هذه ، لان تربيته الدينية قومت فى نفسه الايمان بأن الله جل وعلا عن التمثيل ، بل التجسيد .

وسمعت فى وعى الشباب بطولة عمر المختار ، وجهاده الباسل ضد الفاشستية الغاشمة ، وكيف استشهد أسيرا : ألقى به حيا من حالق طائرة حربية .

واستعدت بقراءاتى الشذرية ان ليبيا كانت اول بلاد تحررت ، وقامت فيها حكومة مستقلة ، بفضل الامم المتحدة ، حينما قررت جمعيتها العمومية فى نوفمبر عام ١٩٤٩ ، أن تسترد ليبيا حريتها كاملة فى يناير عام ١٩٥٢ ، وانها حتى ذلك التاريخ تدار بواسطة مندوب الامم المتحدة .. كان الهولندى ادريان بيلت ، السكرتير العام المساعد ، الى جانب مجلس استشارى يتألف من مندوبين عن مصر وفرنسا وايطاليا والباكستان وبريطانيا والولايات المتحدة الامريكية ، وممثلين عن اقسام ليبيا الثلاثة : برقة ، وطرابلس ، وفزان ، وعن الاقليات اجنبية (٤٦٠٠٠ ايطالى و ٢٢٠٠٠ يهودى) .

وذكرت تاريخ اكتشاف البترول فى ليبيا ، سنة ١٩٥٩ .

خرجت من ليبيا برأى بدهى ، وهو ان الشقيقة العزيزة فى مسيس الحاجة الى مضاعفة عدد سكانها دون توان ، حتى تتمكن من استغلال أرضها وسمائها وبحرها ، بما يتفق مع الثروة التى هبطت عليها من السماء نعمة ، وتفجرت من بطن أرضها ذهبا أسود ، على شريطة أن تبادر بارسال الآلاف من بعوث تعليمية الى الجامعات العربية ، فالجامعات والمعاهد الاوربية والامريكية ، فقد يغنى المال عن الجمال ، ولكنه لا يستغنى عن العقل الباحث المبدع ، ومن الخطل ان تقتصر البعثات على العلوم والتكنولوجيا والاقتصاديات ، فالروح لا تربى بالعلم وحده ، وانما بتنمية الفكر ، والاحساس بالفلسفة والتاريخ والادب والفن . فالحضارة روح وعقل وشعور، قبل أن تكون آلات وأجهزة ومصانع ومنشآت .. خطر الناحية المادية فى الحضارة انها تشترى بالمال، فاذا لم تدعم بالفكر(علما بحتا وفلسفة) . وبالفن والادب ، كانت وبالا على أهلها ، وأى وبال ..

يجب أن نذكر بلاد النفط فى منطقتنا بأن النفط كنز يفنى ، وأروع مثال حضارى لنتاج العقل والاحساس ، هو سويسرا التى لا تملك سوى الجبال ، ومنحدرات المياه والبحيرات، والمراعى الجبلية ، ومع ذلك استطاعت أن تنشىء ثروتها الطائلة على ما يحققه العقل المدبر ، والادراك العملى ، والاحساس الفنى .

هذا رأى عابر طريق ، لايزعم له قيمة ، ولا يدعى له اصالة ، ربما كان من الخير أن لا أصرح به ، لولا طيب النية ، والاحساس بآصرة الجوار والقربى ، وما استجد بين مصر وليبيا من علائق وثيقة .

عبرت ليبيا ، لا أكاد ألوى على شيء ، سوى الاحساس بقرب الوطن . بلغت برج مساعد فالسلوم ، بعد مئات الفراسخ فوق طرق ليبيا الفسيحة المستوية ، لا يعوق المسرع فيها عابر طريق ، انسانا او حيوانا .

وما أن غادرت السلوم ، حتى بدأ عذاب المسالك الوعرة ، والطرق المبهدلة التى تنتظر التمهيد والانشاء من جديد ، وقيل لى فى جمرك السلوم بأن فرج الله قريب .

ويبدو ان الطريق تحسن كثيرا كلما اقتربنا من مطروح ، كان الليل قد أرخى سدوله ، فلو لم يكن الطريق طيبا نسبيا لما استطعت مواصلة السير فى الظلام بسرعة لا بأس بها .

تذكرت اننى لم أخترق طريق السلوم ـ مطروح من قبل، فقد دخلت السلوم من البحر فى رحلات الثلاثينات على السفينة العلمية « مباحث » لدراسة منابت الاسفنج المصرى ، والكشف عن مناطق صيد الاسماك ، أما طريق مطروح ـ الاسكندرية ، فقد خبرته أكثر من مرة ، وعرفت حلوه ومره على مدى أربعين عاما .. اجتزته أول مرة لدى عودتى من واحة سيوة بسيارة فورد مكشوفة ذات اطارات بالون ، حتى فوكة او الضبعة ، ومنها بالقطار الى الاسكندرية عام ١٩٣٢ .

اننى أعرف شواطئنا الغربية ، والشرقية (البحر الاحمر) من البحر ، أكثر مما عرفتها فوق اليابسة ، وكنت أحس بأن مستقبلا سياحيا باهرا ينتظرنا ، بل ذهب بى الامل فى ذلك الزمان الهادىء بأن ميناء هاما بمطروح يقرب السفر بيننا وبين أوربا بطريقة سنحرية ، وأن بالامكان التوسع الكبير فى غرس أشجار الزيتون بمثل ما جرى فى تونس . هذا ومشروع منخفض

القطارة ليس خيالا ، وتحقيقه دان قريب اذا ما انقشعت الغمة وعاد السلام الى ارض الخير والعطاء .

ثم كان لقائى بحواضر الوطن ، وقد سئمت الصحارى ، ففضلت العودة الى القاهرة بالطريق الزراعى ، لان بهجة البساط السندسى الذى يفترش الدلتا تبث فى النفس راحة وهناء ، فيهما صفة الدوام، لا يضعفهما الاعتياد ، وخاصة لدى ابن المدينة الذى لم يولد وفى فمه ملعقة من ذهب ، حتى ولا من صفيح .

كم هو وطن جدير بأبنائه ، وارجو أن تكون الاجيال الجديدة جديرة بعظمته عبر القرون الخالية .

واذا كانت رحلتى قد بدأت من باريس وبلادى تعانى أزمة حادة ، فقد انتهت الازمة على خير وأنا أخترق اسبانيا ، وكانت تصلنى تباعا أخبار الوطن يستقبل عهدا مستبشرا متفائلا .

والتفاؤل لا يكفى لما أصاب شرف البلاد من أذى ، مما يخيم على قلوب المصريين كابوسا مزعجا آناء الليل وأطراف النهار .. فما دام شطر الوطن محتلا ـ رباه لا اتصور المحتل يواجهنا على الضفة الأخرى من القناة ، عليه اللعنة ، وعليها اللعنة تلك القناة التى جلبت على مصر الرزايا من يوم حفرها ـ اقول : مادام شطر من الوطن محتلا ، حتى لو كان شبرا مربعا تفرك رماله اقدام الغاصب ، وبعد أن شاهدت الشمال الافريقى ينعم بالرخاء والسلام ، وهدوء سريرة شعوبه ، فان فرحة اللقاء تعكرها الحسرة الوخازة ، والحزن الدفين .

حزن على وفاة أمى سنة الهزيمة ، وبعدها بشهر ونصف . ياما رددت فى نفسى : ماتت امى ومات وطنى فى ظرف شهرين .. كان عام ١٩٦٧ فى أرجاء نفسى سنة الكرب والبلاء ، عام كربلاء الحسين الشهيد .

عدت وما فتىء الوطن يحثو التراب فوق رأسه حزنا على ما ضاع من ارضه ، ومن استشهد من شبابه ، ومن شتت من كرام اهله .

متى يارب ترفع عن كاهل وطنى الملمات : انت العلى القدير ..

هبنا من لدنك السلام « دونا نوبس باسم » .

القاهرة ١٩٧٢

فهرس

	صفحة
تقديم	٧
مصر واسطة العقد بين المشارقة والمغاربة	١٥
ولا غالب الا الله	٢٢
ما بين الرصافة والجسر	٣١
هذا بنافوس يدق	٤١
سندباد يبلغ المغرب الاقصى	٤٩
فذلكة المرابطين الملثمين	٥٧
عظيم عظماء صنهاجة بين المغرب والاندلس	٦٦
نظرة .. فابتسامة .. فسلام .. فلقاء	٨٤
الفن الاندلسى المغربى	٩٢
عبور الحدود فراق	١٠٠
بين الماضى والحاضر فى بلاد الجزائر	١١٠
خلفية تاريخية لابد منها	١٢٣
تونس بين رحلتى الشباب والشيخوخة	١٣٢
القيروان .. أم المغرب الرءوم	١٤١
عند أقدام الوطن الجريح	١٥١

٥ سبتمبر

ترقبوا..

العدد القادم

منا:

كتاب الهلال

سحر الغناء العربي

حديث كالنغم.. وهمس كالموسيقى

للكاتب الفنان

كمال النجمي

احجز نسختك مقدما • الثمن ١٠ قروش

انتظروا
العدد
القادم
من :
١٥
سبتمبر

روايات الهلال

أجمل ماكتب القصصي العالمي

بريخت

الأم الشجاعة

ترجمة
شفيق مقار

روايات الهلال .. أجمل مايزين مكتبتك

احجز نسختك مقدما • الثمن ١٠ قروش

العدد القادم

من

الهلال

قمة المجلات الثقافية في العالم العربي

أول سبتمبر

فلاسفة الإسلام

الفلسفة طريق إلى الله - فلاسفة الإسلام المعاصرون
الزهاوي الشاعر الفيلسوف - إخوان الصفا
الغزالي ورأيه في الفلاسفة - شهداء الفلسفة في الإسلام

ابن سينا - أبو العلاء - العقاد

مع أجمل الشعر والقصص ... والنقد
دراسات عن أعلام القصة ..

اليوسف الأربعة : السباعي - الشاروني - جوهر - إدريس

العدد ينفد يوم صدوره - فاحجز نسختك مقدما - ١٠ قروش

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص . ب رقم ٩٢
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL

هذا الكتاب

عرف المؤلف رحالة فى المكان والزمان ، بكتبه : سندباد عصرى ، و « سندباد الى الغرب » ، و « حديث السندباد القديم » ، و « سندباد فى رحلة الحياة » ، و « سندباد مصرى » .. رحلات المكان حول بحر الهند ، وفى الخليج العربى ، وفى بلاد الحضارة الغربية .. ورحلات الزمان تصعيد فى تاريخ مصر كله ، وعودة الى ... الملاحة العربية فى البحار الشرقية ، ومصادر رحلات السندباد السبع ، فى كتب الجغرافيا العربية والعجائب .

وهذا الكتاب رحلة سندبادية جديدة ، قام بها كاتبها من باريس بالسيارة يوم ١٧ مايو ١٩٧١ وبلغ القاهرة يوم أول يولية .. اخترق فرنسا واسبانيا ، وبلاد المغرب الاقصى ، والجزائر ، وتونس ، وليبيا ، فى ستة اسابيع ، قطعت فيها السيارة عشرة الاف كيلو متر . يحدثنا الرحالة عن انطباعاته من الاندلس الاسلامية ، وبلاد المغرب الكبير ، واثر حضارة المشارقة فى حضارة الاندلس ، والعلاقات الحضارية بين الاندلسية والمغاربة ، والدول التى تعاقبت على حكم بلاد المغرب ، من عرب وبربر .

صور ... رائعة ، لرحالة عرف بحرصه على رؤية الغاية قبل ... ارها .. لا يصور حاضر بلاد الا امام خلفية مضيئة او مظلمة من تاريخها ..

١٠ قروش